فـــي ظل ابــتـســا مــة

الــكـاتــبـة

هـبـة سـعـيـد

2018م

مراجعةلغوية: الأستاذ/ايهاب نبيل

إصدارات دار الحسيني للطباعة والنشر والتوزيع

اسم الكتاب: في ظل ابتسامة ـ مجموعة قصصية

اسم المؤلف:هبة سعيد

رقم الايداع:2018/25552م

ترقيم دولي:978-9777-6663-22-4

حقوق الطباعة محفوظة للمؤلف

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تجزته في نطاق استعادة المعلومات أو نقلـه أي شكل من الأشـكال المعروفة حاليـا أو التى ترد مسـتقبلاً دون إذن خطي مسبق

المراسلات:

دار الحسيني للطباعة والنشر والتوزيع

المقطم الهضبة الوسطى الحي الرابع منزل رقم 5275 شارع عماد مصطفى

موبايل:01144059975 ت: 27304004

الإهـداء

لكل إنسان بستان يأوي إليه وأنا لي بستانان (نرمين وبسمة) ، أهديكما عقلي كما أهديت روحي .

والدي ووالدتي وأختي :

هذه كلماتي منكم تعود إليكم

هبة

القيد

وقف المارة يستمعون لكل هذا الصراخ المعتاد القادم من الشارع الجانبي الذي يقفون على ناصيته في انتظار وسائل النقل الصباحية التي تقلهم إلى أشغالهم اليومية . هذا الصياح الجماعي الذي تتداخل فيه الأصوات بين صارخ يكيل السُباب واللعنات، وامرأة تتمتم بعبارات مثل حسبي الله ونعم الوكيل في كل ظالم، وآخر يحفز الصارخ ألا يترك حقه ! . . وآخر يحفز المحفز أو يهدئ الصارخ .

اقترب أحد المارة من المكان فكان في قلب ما يدور، شاب ثلاثيني متوسط الطول ذو بشرة خمرية مظهره يدل على نشاط متقد وحبللسعي ؛ هو صاحب السيارة المعطلة الرابضة على الدرب الصاعد بجانب جدار المنزل الذي يسكن فيه داخل تلك الحارة الطويلة الضيقة، يسكن هو وزوجته وأبناءه الثلاثة ووالدته المسنة .

استيقظ فى الصباح في تمام الخامسة، وارتدي ملابسه ونزل مسرعا لتناول فطوره, وارتشاف كوب من الشاي مع أقرانه من سائقي

عربات الميكروباص المكدسين على المقهى القريب من الموقف في انتظار اكتمال عدد الراكبين . .ليبدأ يوم عمل جديد يجوب فيه الشوارع كالطيور التى تغدو خماصا.

في هذا الصباح المعتاد , وبعد تناول طعام الفطور ذهب "جمال" ينادي على الوجهة التي ستتجه إليها عربات الميكروباص ، فبالرغم من تعطل سيارته التي لا يملك حالياً المال الكافي لإصلاحها ، لكن هذا لم يمنعه من النزول إلى الشارع , ومشاطرة زملائه صرخاتهم الصباحية، فربما يتخلف واحد من زملائه عن القيادة فيكون هو مستعداً للقيام بها نظير نصف ما يحصله لذلك اليوم من قيمة الأجرة .

وقف على ناصية الشارع بعيداً عن سيارات الأجرة , لأن قانون المرور يمنع وقوفها على جانب الشارع الضيق، فاعتاد السائقون أن يتركوها داخل إحدى الحارات الضيقة ثم يقومون بإرشاد الركاب إلى مكانها

يبدأ بالنساء المسنات منهن , أولا يتأبطن ذراعه ، مداعباً إياهن بكلمات مثل "إيه رأيك يا حاجة ، تتجوزيني؟" فتبتسم خجلاً وتشير إلى ابنتها لتعلو ضحكته قائلا "لا انا مايملاش عيني البنات الصغيرين دول . . يا إنتي يا بلاش" فتضحك الحاجة وتدعو له بصلاح الحال ووافر الرزق , وأن يبعد عنه أولاد الحرام ! ولكن يبدو أن "الحاجة" لم تخلص فى الدعاء، أو ربما "أولاد الحرام" يغضبهم ذلك التوق إلى الابتعاد عنهم عند بعض الناس يبدو أنهم لا يحبون الوحدة .

ما إن اكتمل عدد الركابحتى أتت سيارة الشرطة من بعيد، وبإشارة من الضابط الجالس إلى جانب السائق المجند نزل المجند بسرعة خاطفة حتى أن "جمال" لم يستطع اللحاق به رغم ركضه من أول الشارع صارخا : "إستنى يا عم إنت.. إستنى"

لكن المجند كان قد طوّق إطار سيارة "جمال" بذلك القيد الحديدي حتى لا يمكن التحرك بها .

اتجه "جمال" مسرعا صوب شباك سيارة الشرطة , وراح يتحدث إلى الضابط بتوسل هادئ لإقناعه بأنه لم يخالف قانون المرور وأن السيارة معطلة , ولن يستطيع التحرك بها حتى لو أراد , وأخذ يستجديه لفك هذا القيد عن السيارة ، لكن الضابط لم يستمع إلى توسلاته ، ويبدو أنه قد ضاق ذرعا ب"جمال" وعربته وتوسلاته ، فنهره كي يبتعد عن نافذة السيارة ، فأصابع "جمال" مازالت ملوثة بالزيت الحار وغير الحار من شطائره الصباحية , وهو يترك أثرا زيتيا فى كل ما يلمسه , ولا يريد الضابط الشاب بقعة زيت تلوث حلته الرسمية ناصعة البياض ولكن "جمال" لم يبتعد , فطلب الضابط منه الأوراق الخاصة بتحقيق شخصيته ورخصة سيارته , وأخرج دفتر المخالفات وشرع يحرر له مخالفة أو اثنتين ربما يرعوى ذلك المخلوق الميكروباصي ويتعلم سماع كلام السادة ، كل هذا دون النزول من سيارة الشرطة !

تصاعدت وتيرة الكلام بينهما حتى صارت أشبه بالصراخ المتبادل ، فكل توسل من "جمال" كان يقابله تعنت من الضابط ، حتى

أصبحت التوسلات أقرب إلى الصراخ , ثم تحولت إلى ما يقارب التهديد,وهو الأمر الذى جعل الضابط ينهي إجراءاته ويأمر سائق سيارته بالتحرك سريعا ، فتعالت صيحات "جمال" تلاحقه : "ربنا مايرضاش بالظلم يا باشا""حسبي الله ونعم الوكيل يا باشا "الافترا وحش يا باشا""طب يا باشا" ثم كان السُباب الفاحش في نهاية الصياح هو آخر كلماته إليه .

فجأة تحول هذا الشاب المفعم بالحياة والمرح إلى بائس مجنون يريد الإنتقام لحقه المسلوب وكرامته المهدرة , فيلتقط الحجارة والحصى من الأرض ويقذف بها نحوالسيارة المسرعة ، وفي غضب عارم يمسك بالكرسي الملقى في مدخل العمارة التى يقف أمامها ويطوحه بقوة في اتجاه سيارة الشرطة .

تجمع المارة وحاولوا تهدئته, وتنبيهه لضرورة التوقف عما يفعله ؛ خشية عودة الضابط القريبة لتحصيل المخالفة التى لا يملك قيمتها ! فاشتد انفعاله . .

ثم ركض مسرعاً نحو سيارته , وحاول بكلتا يديه فك هذا القيد عن الإطار . . أخذ يجذبه عشرات المرات ويضربه بغضب شديد وصرخات عالية , حتى كلت يداه فخرّ منهكاً ، وذهب إلى الرصيف المقابل لسيارته المكبل إطارها ، وجلس ودفن وجهه بين كفيه محاولاً جلب الهدوء لنفسه ، ولكن ما جلبه لم يجلب له سوى المزيد من الهم والحنق .

"جمال" شاب مكافح ذكي، تعلّم حتى حصل على درجة الليسانس في الآداب ، وعندما تخرج ولم يجد عملاً بشهادته الجامعية , ذهب للعمل بمجالات شتى وبنفس راضية شعر أنه حقق لنفسه كرامة العيش بكسب رزقه دون التوسل لأحد .. في عمله لم يعرف المكاتب ولا الملابس الرسمية ، أعتمد على نشاطه والتزامه وحب الناس له في أي عمل يمارسه ، حتى اعتاد حياته بهذا الأسلوب . وكونه الابن الوحيد فإن التراخي والكسل يعنيان الموت جوعا لأمه . . وهو من نشأ يتيم الأب . . لم تقف أمامه مشكلة إلا وأتى عليها بمختلف الحلول.

في جلسته على الرصيف أخذ يفكر في كيفية حل مشكلة القيد الذي يطوق إطار سيارته . . هل يعتذر للضابط ويحاول استعطافه من جديد ؟ ماذا لو تكرر هذا المشهد غداً أو بعد غد أو الإسبوع القادم ؟ ماذا لو تكرر ثلاث أو أربع مرات بالشهر؟ كيف ستسير به الأحوال ؟ فقانون المرور لن يتغير وتحايله عليه لن يتغير ، وروح القانون لا تعرف لها جسداً حتى الآن تستقر فيه فتعرف على من يطبق القانون .

رغم علمه بالمسئولية القانونية إذا أقدم على فك هذا القيد الحديدي ، وأن الضابط لن يتأخر فى جولته وأنه سيعود ليحصل منه المخالفة ، إلا أنه تطلع في الشارع بحثاً عن شخص ما يعلم أنه قد يساعده , فلما لم يجده قام بالاتصال به . . لم يكن بعيداً عنه , ولكنه كان متواريا عن ناظريه . أتى سريعاً ومعه أداة بسيطة . . مفتاح لفك القيد عن إطار السيارة . . وتعاون معه أصدقاؤه فى نقل السيارة إلى شارع جانبي آخر ، انتظاراً لعودة الضابط .

علت وجه "جمال"ابتسامة شبه منتصرة , وجلس ينتظر عودة الضابط.

انتهى الضابط من جولته الصباحية , وعند عودته انتظر بسيارته خارج الحارة على الشارع العمومي وأرسل المجند لتحصيل المخالفة من "جمال" . . لم يجد المجند السيارة المكبلة , ووجد "جمال" جالسا على باب المقهى العامر واضعا ساقا على ساق ، ويمتص دخان سيجارته فى تلذذ , وتلتمع فى عينيه نظرات تحد سافر ، ذهب إليه المجند يسأله عن السيارة والقيد الحديدي , وينصحه بمجاراة الأمر , حتى لا يتسبب لنفسه فى أذى لن يحتمله ، وهو الأمر الذى قابله "جمال" بهدوء عجيب فمن غرائب الأمور أنه وذلك المجند كانا بالفعل صديقين ، وكثيرا ما اجتمعا حول أكواب الشاى وشطائر الفول , وهما يتكلمان بود وينياديان بعضهما بالإسماء كلما تقابلا . . وجمال لا يريد افتعال مشاجرة معه ، فقال :

"الكلابش في الحفظ و الصون . . بس أنا مش هاسلمه غير للباشا في إيده . . إبعته ياخده" .

عاد المجند للضابط وأبلغه ما كان من "جمال" فأشار له الضابط بركوب السيارة واختفى ، فلما غابت سيارة الشرطة والرافعة الملحقة بها عن ناصية الشارع , تحير "جمال" وأسقط فى يده عندما أدرك أن المشاجرة التي كان يخطط لافتعالها مع الضابط قد انتهت قبل أن تبدأ .. يبدو أن لذلك المخلوق حواساً تشبه حواس الضواري وأنها قد نبأته بالخطر القريب . . ربما ينتظره "جمال" في اليوم التالي , غدا أو بعد غد فيضع طوقه الحديدي حول إطار سيارة الشرطة . ابتسم للخاطر . . سيارة الشرطة يتم تقييدها بقيدها الخاص ، هذا مسل للغاية . . وربما يضعه حول عنق الضابط الشاب , وربما أوجد لذلك القيد استخدامات أخرى , وجعله مثل الحجر الذى يضعه أمام عجلات سيارته كي لاتنزلق على الدرب الصاعد لحارته , وربما انتظر عودة الضابط للمطالبة بقيده المفقود , وهشم به رأسه . . من يدري ؟

سوف يكتفي الآن بالتدخين واحتساء كوب الشاي ، وإلقاء السمع لضجيج الناس في الشارع المزدحم .

شق الجدار

عدت إلى البيت القديم ، وجوار نافذتي تحت رف الكتب ، تأملت شق الجدار الذي يمتد من الزاوية اليمنى في النافذة السفلية ، حتى يختفي خلف فراشي ، تأملته وابتسمت . . اعتدت في أيامى الخاليات دس أوراقي الصغيرة في ذلك الشق . . تذاكر الحافلة ، أوراق صغيرة أدون فيها مذكراتي الصغرى ، عن عالمي متناهي الصغر .

كبرت ولم يكبر عالمى . . فقط تغير ، ترى لو جرؤت واستخرجت من ذلك الشق ما يحويه من فتات ذكرياتي ترى أى كلمات سوف أجدها فى قصاصات الورق ؟ ! أي فرحة وأي ألم ؟ ! وكم خيبة احتضنها ذلك الشق وكان عليها صبوراً أميناً . هل سيغضب لعبثي بسكونه وانتزاعي ما كان لسنين طوال جزءا منه ؟

ذهبت إلى كرسي المكتب المعدني متهالك المسندين..الذي احتضن لسنوات عديدة أوقات مذاكرتي , وقراءة روايات ليتني ما قرأتها ، وكتابة رسائل ليتني ما كتبتها

في ظـل ابتـسامـة هــبة سعـــيد

أدرته لمواجهة الشق . .أنظر أي القصاصات انتقي ، انتابني شوق وخوف، فقد اعتدنا دفن ذكرياتنا في مقابر النسيان ، فما فات قد انقضى ومات، أما ذكرياتي فهي أجنة تعيش بداخلي , وتقتات على أعصابي ودمي فينمو ويكبر بعضها لكنه يأبى الخروج ليصبح كائنا كاملا، فقط أشباح وصور , وموتى بلا أمل في حياة . لكنها تركلني كلما مر بي حدث يذكرني بفرحي بحزني ، بخيباتي وأحلامي . .

وقع نظري على قصاصة أتذكرها جيداً . . ورقة السيلوفان الصغيرة الحمراء ، غلاف الشيكولاتة المهداة لي في حفل زفاف جارتي وصديقة طفولتي البعيدة . . أتذكر جيداً يوم زفافها بعد حصولها على الثانوية العامة وأنا مازلت بالمرحلة الإعدادية . كان لهذا اليوم وقع غريب علي . . كنت أنظر إليها كرفيقة لعب يأخذها طفل آخر كبير ليلعب معها . كنت أنظر وأسأل نفسي . . أين سيأخذها ؟ وإلى متى سيمتد الغياب ؟

تذكرت شعور الفقد, وآلمتني الذكرى وإن كانت مفرحة !
رفعت رأسي لأعلى , وأغمضت عيني أشم رائحة المكان ذلك البخور الصندلي مازالت رائحته عالقة بأنفي رغم هجري تلك الغرفة لأكثر من عقدين ، ومازال عطر مراهقتى الرقيق الآسر يطوف بخجل مثل خجلي وحياء مثل حيائي و . . حزن مثل حزني .

فتحت عيني مرة أخرى , فوقع نظري على قصاصة بيضاء اصفر لونها بفعل مرور السنين ، ظهرت سطورها رغم انثنائها على نفسها ، ألتقطها وبعين مترددة تجولت بين السطور الثلاثة التي تحتويها ، فانفرجت شفتاي بابتسامة حنين شاعت في وجهي . كيف نسيت تلك الرسائل ؟

صديقتي التي كانت تسكن على الجانب الآخر من الشارع وأري شرفتها بمواجهة شرفة غرفة الصالون بهذا البيت القديم . . صديقتي وزميلتي لست سنوات بالمدرسة . كانت تتبادل الرسائل مع ساكن الطابق الذى يعلونا, ويقوم بمهمة إيصالها حارس العقار . . تلك الرسالة كانت محاولة منها لتوصيل الرسالة بلا وسيط ! أمسكت

رسالتها بمشبك خشبي , وحاولت رميها لتصل لشرفة الحبيب الصغير ، ولكن قوة ساعدها لم تسعفها فأخطأت قذيفتها الصغيرة هدفها لتسقط في شرفتي أنا . .أتذكر ذعرها,ومداعبتي لها عندما قلت أن رسالتها وقعت في يد أمي وأنها سوف تخبر أمها, أتذكر مجيئها إلى بيتنا تطلب إعارتها طلاء الأظافر أبيض اللون لتكمل زينتها قبل مقابلة حبيبها اليوم . كم ضحكنا ،كم توسلت لي أن أعيد لها رسالتها الصغيرة .

تذكرتها فتذكرت وجعي لثاني المفقودين ، غابت ولكن هذه المرة يوم زفافي أنا ! بعد أن اجتهد زوج المستقبل الذى أصبح زوج الماضي في إبعادي عن كل من أحب و كل ما أحب .

عند هذا الحد أدركت أن جرأتي بالتعدي على قاطني شق الجدار أبدا لن تمر بسلام , وسألقى منها ما يقلق أجنة ذكرياتي, وسوف أتلقى ركلاتهاالمؤلمة في كل ركن من أركان كياني ، فدسست تلك القصاصة بجيبي معتذرة لشق الذكريات لإختطافها منه ، وأدرت وجهي تسبقني ذكرياتي لخارج الغرفة وطلبت من أمي أن توقظ أبي

لتناول طعام العشاء .

جلس ثلاثتنا نستعد لتناول الطعام , ويبدو أن ذهني مازال عالقاً بغرفتي القديمة فقد عدت لممارسة عادتي الطفولية , وهي العبث بطعامي دون أكله .

أخذتنى من شرودي همهمات أمي وأبي عن اعتزامهما تجديد أثاث المنزل وطلائه . . طلائه !! إذن ذلك القبر المفتوح فى جدار غرفتي القديمة الذي يعطيني بعض الأمل فى أن تدب الحياة من جديد فيما يحويه من ميت الذكريات . . ذلك القبر سوف يغلق للأبد . لست أدري لِمَ أنقبض صدري وانزعجت ؟!

أعلم أن الحاضر العابس يجعل الماضي يعبس, وقلما نجحت في انتشال ابتسامة باهتة من بين براثن الماضي العبوس.

ماذا أفعل إذن ؟ هل أخاطر وأنزع من جدار أسراري كل ما يحويه , قبل أن تنزعه أيد أخرى لا تعرفه ولا أعرفها، ولا تملك ما أملكه من عطف على ذلك الصامت الصبور، حافظ الأسرار . . ربما الحل الصحيح أن أدفع بقصاصات ذكرياتي تلك إلى أعماق الجدار ليأتي

عمال البناء فيسوون الشق , ويقومون بطلاء الجدار , فيبقى كما هو محتفظا بما أودعته من أسرار.

غرقت في تأملاتي , ومازلت أعبث بطعامي ، ومازال أبي وأمي يتآمران على حافظ أسراري القديم .

ولادة

تقدمت نحوي صديقتي القديمة ، رفيقتي منذ أن كنت طفلة في السادسة ، انفرجت أساريري لرؤيتها , وتقدمت نحوها بذراعين مفتوحين لاحتوائها في عناق ، ولكن . .حتى وأنا أسكن بين ذراعيها أكره منها شيئاً ما .

يضايقني أن شرائط الزينة في شعرها ملونة , وشرائط زينتي بيضاء . صحيح أن ذلك قد مضى عليه أكثر من ربع قرن لكنه يضايقني وكأنه يحدث الآن .

ولكنها كانت كثيراً ما تمد يدها لتزيح خصلة الشعر المتمردة التي تتهدل على ناصيتي ، أو تبلل إبهامها وتسوي به حاجبي إذا تشعث . . لكنها – الحقيرة – كانت تختلس من أدوات والدها أقلامه الغالية ، ومن أمها أدوات زينتها المبهرة ، التي لم أكن أستطيع أنا ولا غيري من بنات صفي الحصول عليها . . وكانت – الحمقاء – تبالغ في حراسة ما تختلسه من مقتنيات أمها وأبيها, ولا تسمح لي ولو بمجرد لمسه.

وبالطبع لن أغفر لها أبداً أن الفتى أشقر الشعر , طويل القامة الذي أتى إلى مدرستنا في الصف الثالث الإعدادي وافداً علينا من حيث لا نعلم ، ذلك الفتى كانت أولى نظراته المتطلعة إليها .

هى صديقتي ربما الوحيدة وأحبها , ربما أكثر من نفسي ، ولكنها لعنتي القديمة ، ذاكرتي اللعينة التي ترفض أن تغادر صغيرة أو كبيرة إلا وتشبعها تفصيلاً وتحقيقاً ، وتريني كل أحداث حياتي وكأنها تحدث الآن . . حياتي كلها في آن واحد مستمر بلا نهاية .

انتهيت وصديقتي من العناق الطويل الذي قطعه تبادل القبلات على الوجنات , فسألتها وسألتني عن الحال والأحوال، ثم اتجهنا إلى . . إلى أين ؟! متى التقينا ؟ أين كنا ؟ تبا..أين التقيت صديقتي القديمة ؟ ربما كنا في عرس أو حفل آخر أو مناسبة من تلك المتتالية المتشابهة . . وربما.. ربما ماذا ؟ كيف أتذكر رداءها وحذاءها , والشعرة الوحيدة النافرة من حاجبها الأيمن ، ولا أتذكر أين كنا ولا متى ؟ رباه ..كم أنا سعيدة !!

يبدو أن لعنتي القديمة قد آن لها أن تزول . . وربما زالت واستبدلتها بلعنة أخرى . . لعنة الحيرة بدلاً من لعنة السكون ..حائرة من ضياع ما لا أتيقن من ضياعه ، بدلاً من سكون لحظاتي السابقات على لحظتي الآنية وجمود سيرورتها لتصير هي لحظتي الآنية..لست أدري هل هو داء جديد , أم لعنة أم هبة ، أم حياة جديدة ولادة جديدة ، بعقل وقلب وذاكرة جدد.

انتزعتني من دوران رأسي ودوار حيرتي ، جذبة من يد صديقتي التي أرسلت تدعوني كي ألاقيها هنا.

لكني وبينما أنتظرها وقعت فريسة لنفسي , فتركت ذاكرتي تعبث بي ، وتطوف بين أطلال الماضي القريب والبعيد .

استغرقت ثوان كي أنتزع نفسي الحائرة من بين أمواج ذاكرتي الهادرة ، وأفقت متجهة إلى صديقتي التي أصرت على أن يكون لقاؤنا هنا ، في عرس صديقنا القديم أشقر الشعر طويل القامة ، الذي وفد علينا أثناء الصف الثالث الإعدادي من حيث لا نعلم . . اليوم عرسه . لم يعد ذلك الطفل . . صار رجلا ، وإن ظل أشقر الشعر

طويل القامة ممشوق القوام . سوف يتزوج واحدة من زميلاتنا في الجامعة كانت مثله شقراء الشعر طويلة القامة . .أراها لطيفة.

تلكزني صديقتي القديمة ، فألتفت إليها فتقول :

ماذا يعجبه في تلك ؟!.

أندهش! وتطل دهشتي من عيني , فتردف صديقتي وتقول : ألا تذكرين ماذا فعلت ؟

ألا تذكرين غرورها وصلفها وتجاهلها لنا في الجامعة ؟

قلت لها: بلى . . بلى . . أذكر.

كنت أكذب الحق أنني لا أذكر . إن ذكرياتي عن العروس الشقراء لا تتعدى بعض الصور متآكلة الأطراف ، شبحية التفاصيل , تهوم في فراغ ذاكرتي دون أن تستقر أو تكف عن سيولتها ، لتجمد في قالب من الضيق أو الحزن أو الحب ، ولكن يبدو أن صديقتيلها رأي آخر , ويبدو أنها تعاني من لعنتي القديمة.

تركتها واتجهت إلى شرفة بعيداً عن ضجيجوصخب المحتفلين بالعرس السعيد ، فوجدت بعض الأصدقاء . وجوه مألوفة بعضها أحبه وبعضها أمقته ، ولا أذكر لِمَ أحب من أحبه ، ولا لم أمقت من أمقته ؟!

بعض الوجوه أعلم أنها قريبة مني مثل انعكاس صورتي في المرآة، وبعضها أشعر أن بيني وبينها كل فلوات العالم، تفرست في الوجوه سريعاً علّني أذكر شيئا يدلني على أسباب الحب أو المقت ، لكني أبدأ لم أفلح
خانتني ذاكرتي ، مثلما اعتدت منها في شهوري القليلة الماضية .

رحت أسلم على من أحبه ومن أمقته ، وتتوارى خلف الابتسامات المصطنعة كل ما خفي من المشاعر, أو حي من ذكريات.
ولكن لا . . هؤلاء القوم كلهم لا أحمل لهم سوى الحب، كلهم حتى هؤلاء الذين أمقتهم، فلهم تلك الميزة النادرة إنهم مثل الريح والنسيم ، لا شكل لهم ولا حضور، فقط يوجدون عندما يوجدون ، ويختفون بلا أثر يتضخم ويجر أذيال من الحسرة والتفكير والذكريات

وقفت بتلك الشرفة وأدرت ظهري لهذا العالم بصخبه ومرحه وذكرياته . توجهت بذاكرتي لذكرى وحيدة ، جاءتني مسرعة يزجرها هاتف أسمعه يقول : أليس هذا ما كنتِ تتمنين ؟ أن تنعمي بقليل من صفاء الذهن ؟ ألم تقلبي وجهك في السماء ، أن يريحكِ الله من آلام ذكريات تؤرق نومك وتقلق صباحك وتعصف بذهنك ، كلما جلستِ وحيدة ساكنة ؟

تذكرت تلك الحالة التي كنت عليها كلما هاجمتني ذكرى من أمسياتٍ بعيدة بعضها لا يحمل أي شيء سوى أن يفتق جرحاً قد رُتق على ما فيه من وجعٍ منذ زمن واندمل ، وبعضها حي كان يجب أن يحيا دون تلك الذكرى التي تعوقني ، وتمنعني من استكمال مسيرة حياتي في سلام . . هل استجاب الله لدعائي ؟! وباتت ذاكرتي الآن مُتعبة هرمة ، ربما آن لذاكرتي العجوز أن ترقد في سلام، يبدو أن رحمات الله قد شملتني , ووهبنى الله حياة أخرى ربما ولدت من جديد , وتركت خلفي حياتي القديمة بكل ما فيها ومن فيها من أشياء وبشر وذكريات .

لكن الذكرى لا تغادر كاملة ، لابد أن تترك أثراً بالنفس كندبة غائرة تعلن أن شيئاً كان هنا ثم مضى ردني من شرودي لحن تناهى إلى مسامعي ، فأغمضت عيني وأرجعت رأسى للوراء ، وتمايلت مسحورة بشجى اللحن وارتجاف الوتر ، وابتسمت . . أنا المولودة مرتين ، استسلمت للحنٍ حملني إلى ذكرى أخرى، لا أذكرها ، ولكن أذكر أنها كانت سعيدة .

حياة

المدخل الضيق للبناية الصغيرة التي تضم المشفى الصغير لذلك الطبيب المعروف ، بدا وكأنه فوهة لكهف بمدخله الطويل المظلم ، ولم يكن معتاداً ضيق مدخل بناية كهذه في تلك المنطقة المعتاد اتساع المساحات ورحابة المداخل والمخارج ، ولكن سلسلة من الانتهاكات والاقتطاعات لحقت بالمدخل مفرط الاتساع، وصار جانبيّ المدخل مساحات لتخزين البضائع والسلع التي يشتهر بها الشارع الصاخب الذي تجثم على ناصيته البناية العريقة .

وحينما دلفت إليها وجلة متوجسة , لم تحمل إلي درجات السلم المتآكلة أي طمأنينة . فقط زادتني حذر على حذر ، وضعت قدمي وأمسكت جيداً بسور الدرج الحديدي ذي الحواف الخشبية , وصعدت وأنا أتأمل في إتقان صنعته وأقول لنفسي أن هذا الدرج هو الشيء الوحيد الذي يشي بما كان لتلك البناية المتهالكة من مجد قديم , وظللت أصعد .رأيت في الطابق الأول أبواب بجوارها لافتات صغيرة تحمل أسماء قاطني ذلك الطابق . كذلك في الطابق الثاني ،

وكلهم ولدهشتي كانوا يحملون تحت أسماءهم ألقاب ومسميات وظيفية مرموقة , وإن بدا على البناية وطوابقها ودرجات سلمها الإهمال والترك .

وصلت إلى وجهتي . . إلى مشفى الطبيب المشهور ، لم تكن في الواقع سوى عيادة بائسة , ولكن صاحبها يصر على تسميتها "مشفى" ويُذيّل لافتته الكبيرة بألقاب تُتعب من يريد الحصر ، وكلها تدل على مدى براعة صاحب اللافتة في معرفة أمراض النساء أمراض النساء كثيرة ، أولها صاحب المشفى وبقية أفراد جنسه من الرجال . . ولكن لسبب ما ، لا تدل عبارة أمراض النساء سوى على ما يتعلق بالحبل والولادة

ربما كان هذا حقيقيا إلى حد الرعب ، لا شيء أكثر مرضاً وقسوة من جلب إنسان إلى هذا العالم ، ورغم ذلك أنا هنا كي أشتكي من عدم قدرتي على ارتكاب ذلك الجرم .

دخلت من بابه المفتوح إلى مساحة كبيرة مخصصة لاستقبال مرضاه . . وإن كان الحال غير ذلك ، فتلك المساحة قد شغل مقاعدها

نساء كثيرات تبدو عليهن كل علامات الصحة ، بل أن في ملامح بعضهن غير قليل من التحفز والغضب . توجهت إلى مساعد الطبيب لأسأله إن كان الطبيب موجوداً , فأجاب : إنه موجود ,ولكنه يجري عملية ولادة لإحدى النساء، وطلب مني أن أجلس لأنتظره , فالأمر لن يستغرق سوى دقائق .

تخيرت من المقاعد القليلة الشاغرة واحداً وجدت جارتي فيه هادئة مستكينة ، فجلست جوارها أصغي لأفكاري ولا أتطلع في وجه واحدة منهن . . ولكن هذا كان قبل الصراخ..صراخ حاد طويل تارة ومتقطع تارة أخرى ، يصدر من خلف الباب الفاصل بين صالة الاستقبال وغرفة الولادة , ولم يكن هذا النوع من الصراخ فى العادة مما يفزع النساء ، فجميعهن ممن سبق لهن الحمل والولادة ، بل إن بعضهن بدأن يتندرن ويتبادلن الابتسامات الساخرة مع البعض الآخر , ثم انبرت واحدة منهن تحكي عن ذكريات حملها وولادتها الملحمية , وأخرى طاعنة في السن مصمصت شفتيها ، وراحت تتحسر على زمن قديم كانت النساء فيه تلدن دون صوت ناهيك

عن الصراخ !

ثم هبت واحدة منهن وراحت تقطع المساحة ما بين مكتب المساعد وباب غرفة الولادة مشياً , وتعود لتقطعها ثانيةً وهو الأمر الذي أثار حفيظة جارتي الصموت فمالت عليّ متحينة الفرصة التي تبتعد فيها تلك المرأة المتهادية ، لتهمس في أذني وهي تشير بعينيها نحوها وتقول أن تلك المرأة الملطخة بأصباغ المهرجين المزينة بالأساور والحلي الذهبية هي ضرتها !

لم أبد أي رد فعل يغري جارتي التي كانت صموتاً وصارت غير ذلك أن تستأنف حديثها الهامس وتردف عبارتها بأخرى . . لكنها أردفت على أي حال، وقالت : أن المرأة التي تصرخ في حجرة الولادة هي ضرتها الثانية . . وإنها هي الزوجة الأولى وتلك المتبخترة بين المقاعد المرجرجة لثقيل الأرداف هي الزوجة الثانية وأن النصيب قد جمعهن بهذا الزوج الباحث عن ولد .

ارتفع رغماً عني حاجبي الأيسر , والتوت شفتي في إشارة لم ترها جارتي . . واحترت في أمري وأمرها ولم أعلم هل يتوجب علي الرد أم السكوت .

أنقذني من حرج موقفي انفراج باب حجرة الولادة ليخرج منها الطبيب . . طاعن في السن , أشيب الشعر وإن كان متين البنيان , جهوري الصوت ينهر النساء اللائي هممن بالنهوض ويداعب العجائز منهن ويستحلفهن بأن يقلن للصغيرات في السن أن تهدأن لأن الأمر لا يستحق كل هذه الضجة .

الأمر لا يستحق هذه الضجة ! لديه كل الحق . . منذ متى كانت الولادة وخروج حياة جديدة إلى ذلك العالم أمراً يستحق الإهتمام ؟

كان يجفف يديه , ويلوث معطفه الأبيض لطخات من السائل الأحمر الباهت حائل اللون ويتوجه إلى حجرته تتابعه أنظار النساء.

في هدوء انتظرت دوري ، ولا أعلم لماذا غادرت مقعدي للجلوس على مقعد آخر بعيداً عن السيدة ضرة الضرتين ، ربما اكتفيت بدهشتي مما سمعت وأردت فقط الإنتظار .

جلست بجانب فتاة تصغرني بسنوات قليلة علا وجهها نظرة حائرة . . لا تهتم لأي مما يدور حولها . . عيناها معلقتان بباب حجرة الكشف تنتظر دورها ، وأصابع كلتا يديها مشبكتان ببعضهما وقد التف كل إصبع على آخر في حركة تبادلية مستمرة تعلن عن قلق وتوتر باطنها ، لاحظت من تميل نحوها بين الحين والآخر تربت على يدها , وفي همس تطمأنها بأن الوقت مازال معها للخلاص مما هو كائن فيها .

أصابني بعض التوتر,فدفنت وجهي بين كفيّ ، ولم أرفعه إلا بعد دقائق قليلة مع مرور الطبيب أمامي متوجهاً إلى حجرة الكشف .

نادى المساعد فقامت تلك المتوترة لدورها ، وذهبت بقية النساء لغرفة الإفاقة للاطمئنان على الضرة النفساء ، وربما على المولود إن كان ذكراً ، وبقيت وحدي أنتظر دوري في سكون ، وقد دارت برأسي ما لا حصر له من خواطر .

من أجل ماذا نحتمل كل تلك المعاناة ، في منع أو منح طفل تلك

الحياة ؟ ، وكيف لنا أن نعلم في أي الحالتين سعادتنا ومتى يكون شقاءنا ؟

إنجاب طفل يعني حياة نفس جديدة رزقا جديدا . . وربما أيضاً عبء جديداً !

إنجاب طفل يعني اكتمال حلم لأسرة صغيرة ، وقد يعني أيضاً بناء بيت جديد على أنقاض آخر قديم ، ربما حرمت سيدته الإنجاب !

كما أن إجهاض طفل قد يعني موت أمل آخر ، وقد يعني إنقاذ حياة أنثى , أو نجاتها من فضيحة مؤكدة !

عند هذا الحد توقفت نظرت لنفسي ، تذكرت أني مازلت فارغة البطن ، ما الذى أفعله هنا إذن ؟ !

وجهت عيني لباب العيادة التى يصر صاحبها أنها مشفى ، ولم أنتظر دورى فقد قررت عدم البقاء وأن أترك الأمر بيد الله .

توجهت مسرعة نحو باب العيادة متجنبة نظرات المساعد المتساءلة . لم أر الطبيب ، ولكنى رأيت ما فيه الكفاية .

جيراننا الطيبون

كنت أتابع صخب الصاخبين وهرج المارة ، أثناء تجوالي في الشارع الفاطمي القديم ، حتى اخترق زحام الجموع طفل يبدو في الثانية عشرة من عمره يحمل قردا !

لم يكن يحمله حقا ، كان القرد يتشبث بذراع الطفل وحول خصره سلسلة معدنية متينة . نظراته الملتاعة وعيناه الزائغتان جعلتني لا أرى فيه سوى طفلٍ آدميمذعور يلوذ بذراع أخيه خوفا من سخافات الكثيرين المتحلقين حوله .

دفعه الطفل الذي يحمله لينزل على الأرض فنزل ، ورفع عينيه يتطلع في ذعر حوله ، ثم التمس فرجة بين الأقدام الكثيرة المحدقة به وبادر بالفرار . . لم يقطع سوى مترٍ واحدٍ . السلسلة الحديدية التي تحيط بخصره منعته من تنفيذ خطته، وأعادته جذبة عنيفة من الطفل الممسك بالسلسلة إلى منتصف حلقة المتفرجين ، فعاد القرد الذي لم أعد أراه قردا إلى مكانه ، وعاد يقلب نظره في وجوه آدمية كثيرة – لم أعد أراها آدمية – يلتمس منها عونا أو يستجدي شفقة ، ولا

أحسبه وجد ما التمسه حتى من صاحبه الطفل الذي دفعه بقدمه حين حاول تسلق ساقه ليعود للتشبث بذراعه ، لم يجد سوى نظرات القسوة والانتشاء الحيواني بفكاهة لم أرها , ولم يرها القرد المذعور . بل أن بعضهم راح يركله أو يلقي عليه لفافات التبغ الموشكة على الانتهاء!

أعاد مشهد ذلك المسكين إلى رأسي ذكرى ظننتها طمست وانمحى أثرها . . وقت كنت بالهند ورأيت ذلك القرد مقطوع القدم وهو يتجول في الطرقات بحثا عن لقمة يتسولها من آكل رحيم أو يختطفها من يد طفل غافل ، أو تمتد له يد أي إنسان فتحسن إليه بها .

القردة هناك كالقطط والكلاب هنا، تقترب لاستجداء عطف أو تبتعد وتلوذ بالفرار فزعا .

أفقت من شرودي في تلك الذكرى ، ونظرت للطفل صاحب القرد فوجدته غاضبا من سلوك المارة المتفرجين ، وانتظرت أن يجذب صديقه الضئيل , ويرفعه بين يديه في ضمة حانية إلى صدره النحيل حماية له مما يلقى من سخرية وأذى . . لكن غضبه كان لسبب

آخر غير غيرته وحبه لقرده !

يبدو أنه لا مانع لديه من السخرية منه وممارسة السخافات عليه إذا كانت مدفوعة الأجر , ودون إلحاق أذى بالغ به قد يشوهه , فيتعذر عليه أخذ الصور التذكارية التى تدر دخلا لا بأس به هي الأخرى !

طفلان شقيان ، لا أعرف أيهما أشقى من صاحبه

قطعت بعض الخطوات , وأنا أمر بمحلات تجارية كثيرة أزاحت عن ناظري وذهني ذلك المشهد قليلا ، وملأت عيني بريقا من الأدوات النحاسية والحلي اللامعة ، وأضافت جمالا لجولتي، تسلل رويدا رويدا إلى روحي فردني إلى متعة رحلتي ردا جميلا .

خطوات قليلة رأيت كلبا يرقد أمام مطعم للمأكولات الشعبية، وعلى كرسي بجانبه تجلس سيدة عجوز، ربما هي صاحبة المطعم .

عند اقترابي من الكلب تبينت أنها أنثى ، فأثداؤها المنتفخة وهي مائلة على أحد جانبيها تعلن عن أمومة حديثة ، نظرت إليها فرأيت هدوء نفس أعاد لنفسي هدوءها , وأمان روح اطمئنت له روحي ،

وعينين دافئتين تنظران نحوي في كسل وخلو بال .
سيدتان آمنتان لا أعلم أيهما أهدأ نفسا من صاحبتها.

تمهلت في خطوتي وأنا ثملة بسعادة ماأظنها ممكنة، وقت الغروب قد حان ، وأقبلت معه نسائم حريرية تحمل عبق المسك والبخور ، وقد بدأ الشارع تضاء أنواره . . أنوار ذات ألوان دافئة ، تحت مأذنة هذا المسجد إضاءة أورجوانية خافتة ، وعند سلم ذاك السبيل مزيج بين الضوء الأخضر والأصفر الذهبي.

جلست على الرصيف تحت تلك القبة المذهبة ، وإلى يساري وقف جوادان بنيان من جياد الشرطة في مدخل ذلك الشارع القديم . .
يقف الجوادان في عزة وشموخ بينما يقف الشرطيان غير بعيد ، ويتبادلان حديثا وديا ، يبدو أنه وقت راحتهما .

أي الأزواج تلك الأضعف ؟ ومن فيهم صاحب الهيبة الأكبر ؟ الشرطيان أم الجوادان المقيدان ولا يجرؤ أحد على التطاول بأي سخافة عليهما ؟

لم يسعفني عقلي بإجابة شافية ، فقد ظلت الإجابات تتأرجح بين

كفتي ميزان المقارنة بينهما حتى كادت تفسد علي متعة التواجد بالمكان .

مازلت في ضلالي القديم . . أخرج في نزهة وأحمل آلة التصوير لأراقب الأشياء والأماكن , وأشاهد روعة البنايات ونقوشها، فأجد نفسي لا أراقب سوى الحيوانات والطيور ! حتى وإن كانت تحلق عند أبعد نقطة في الأفق ، أو حتى أتابع في شغف طابورا من النمل يتسلق جدارا ويغيب في شق فيه .

طردت الفكرة من رأسي بصعوبة، وانتبهت إلى صخب آت عن يميني . . نظرت فرأيت رأسا لقط صغير يحاول الخروج من نافذة ذات قضبان حديدية ضيقة الفرجات في الطابق الأرضي لهذا المبني العتيق

مواء ضعيف ، وأنين لا يهدأ ، شدا انتباه المارة فتطوع أحدهم وحرر جسدها من بين القضبان الحديدية المتشابكة .

القطة رقيقة للغاية، زيتونية العينين ، لونها أبيض ولها أذنان سوداوان . هيئتها لا تثير لدى الرائي سوى الشفقة والعطف ، وربما الرغبة في

الإحسان إليها بكسرة خبز أو شربة ماء ، لعلها تكف عن أنينها المكتوم . . وهذا ما ظننته سيحدث فور تحررها ، لكن من أطلقها ومضى في سبيله لم يعلم أنه حررها من أسر تلك القضبان الحديدية ليوقع بها في أسر قلوب أشد قسوة من كل فولاذ العالم .

القطة البائسة تلقفتها أرجل الصبية الذين أخذوا في تضييق الخناق عليها بين فرجات أقدامهم , وهي مذعورة تحاول الهرب في اتجاه قيدها الحديدي الأول ، فقد كان أكثر هدوءا ورحمة ، ومن جديد رأيت في عينيها نظرات القرد المذعور المتشبث بذراع صاحبه . علا صوت موائها وتسارعت وتيرته ، وعلا صوت ضحكاتهم واشتعل حماسهم وهم يقلبونها بين أقدامهم كالكرة ، إلى أن سئم واحد من أصحاب المحال التجارية صخبهم فقام من جلسته أمام باب محله , ونهر الصبية وطاردهم حتى فروا هاربين .

تلفتت القطة حولها غير مصدقة أنها نجت من أيدي وأقدام الصبية العابثين بعد أن كانت موشكة على الهلاك ، ولما لم تجد ما تخشاه نظرت نحو الرجل الذي طارد الصبية . . وبدأت تمشي نحوه . .

كانت تعرج في مشيتها . . لم تنج تماما كما ظننت ، يبدو أن الأقدام العابثة قد كسرت قدمها .

لا أعلم إن كانت تعرف أن الرجل الذي تمشي نحوه هو منقذها أم أن غريزة ما تحركها وتخبرها أنها سوف تجد الأمان عند الرجل .

كنت أراقب القطة الصغيرة التي تجر جسدها جرا نحو الرجل ، أراقبها بشك وقلق بالغ ، فالرجل يبدو شرس الملامح , ولن يكون أفضل كثيرا من الصبية العابثين.

قطعت القطة الثلاثة أمتار التي تفصلها عن حانوت الرجل بمشقة ، وتوجهت من فورها نحو قدم الرجل الذي انتبه لها فنظر لأسفل ، فوجدها تتمسح بساقه . . أذهلني رد فعل الرجل ، فقد شاعت في وجهه ابتسامة لانت بها ملامحه الشرسة ، وانبسط بها انعقاد حاجبيه ، وترك القطة واتجه إلى داخل الحانوت تتبعه القطة !

خرج من حانوته يحمل وعاءا فخاريا به ماء نظيف ، ووضعه أمام باب الحانوت فأسرعت القطة لتشرب ، ودخل هو إلى حانوته من جديد , وخرج بيده لفافة ورقية ، جلس ووضعها بين فخذيه

وفتحها وأخرج منها بعض الطعام , وألقاه للقطة الصغيرة بجوار الماء ، ولما اطمأن أنها تأكله، شرع يأكل وابتسامته الساحرة مازالت تعلو وجهه .

انتبهت وقتها أنني كنت ذاهلة أُمسك بآلة التصوير وأصوبها نحو الرجل والقطة , ولم ألتقط لهما صورة واحدة !

فاكتفيت بصورتهما الذهنية في رأسي وقلبي ، وعادت أنوار الشارع الفاطمي تتلألأ حولي من جديد ، وتنسمت في الهواء روائح الطيبة والبخور . . ونهضت عازمة على إنهاء نزهتي بسرعة وأنا في هذه الحالة ، قبل أن يقدم واحد من المارة الآدميين على اقتراف واحدة من جرائمنا غير الآدمية ضد واحد من جيراننا الطيبين .

سيادته

ينظر عبر النافذة بعينين شبه مغمضتين , ويطلق أنفاسا ساخنة بل ملتهبة ، فيتكثف الماء على نافذته التي يستند عليها بمقدمة جبهته , ويراقب منها بخواء معالم الطريق

اعتدت رؤيته طويل القامة لم تتهدل كتفاه بعد , ولم ينل الوهن من عينيه المفعمتين بالحزم والصرامة , مثلما نال الشيب من رأسه ، له نظرات بها ذلك السمت الذي لا تخطؤه العين ، نظرات من اعتاد أن يأمر فيطاع .

وأنا صموت وخجول , لا أحب تبادل الأحاديث العابرة مع جيران الحافلة التي استقلها كل يوم متوجهة من وإلى بيتي الكائن بأطراف العاصمة , ورغم محاولات غير واحد وواحدة من الجيران والجارات الحديث والثرثرة . . إلا أنني دائما ما كنت أحتفظ بصمتي وأكتفي بهزة رأس أو ابتسامة مجاملة , تنهي الحديث وتئد رغبة الجار أو الجارة في الاستطراد إلى مالا نهاية

حتى هو الصامت دوماً المتجهم بلا سبب أعرفه ، حاول غير مرة أن يتبادل معي التحية أو أن يفتح مجالا لحديث وكنت وقتها – ومازلت – منغمسة في ذاتي أصغي إلى نفسيولا اكترث كثيرا بالحافلة التي تحملني إلى بيتي , ولا اكترث بالعاصمة التي أسكن على أطرافها , ولا بيتي ذاته الذي تحملني الحافلة اليه، لذلك – ورغم أن جاري المتجهم الصموت يبدو مثلي لا يكترث بي ولا بالحافلة ولا بكل من تحمله من جيران وجارات – إلا أن ذلك لم يجعله أقرب إلي من غيره , ولم أر فيه سوى جار آخر تقله الحافلة التي تقلني إلى ذلك المجمع السكني المغلق الذي أسكن فيه أنا وكل ركاب الحافلة .

ولكناليوم وأنا أجلس خلفه على مسافة مقعدين أراقبه وأرى سكون ظاهره وأخمن صخب الأفكار المعتملة بباطنه , التي يفصح عنها هدير أنفاسه الساخنات التي يتكثف ماؤها على زجاج النافذة فتحجب عنه رؤية المشهد الذي كنت أظن أنه يجلس ـــ دوما ـــ في ذلك المقعد كي يراه . ذلك رجل يجلس بجوار النافذة وينظر منها ولا ينظر ولا يكترث برؤية ذلك العالم الذي يمر بجواره .

أعلم أن لكبار السن عادات غريبة , ولكن تلك العادة ليست منها . . فالرجل لا يفعل ألا ما أفعله أنا, ولم أنتبه من قبل إلى تلك النظرة الحائرة التي تطل من عينيه ويصافح بها كل موجود يراه . هي نظرتي أنا . . ومقعده جوار النافذة هو نفس مكاني المفضل ، حتى زفراته التى يطلقها بين حين وآخر , هي زفراتي التي أطلقها منذ أن كنت طفلة أسافر بالقطار وأجلس بجانب أبي فأزفر وأخط بأصابعي رسوماً سرعان ما تختفي مع اختفاء بخار الماء المتكثف على زجاج النافذة , ومازلت حتى اليوم أفعل ذلك في القطار ، وفي الحافلة , وحتى في السيارة .

ترى لِم لم أنتبه قبل اليوم لجاري المتجهم الصموت ؟! ربما لأني متجهمة وصموت مثله ! وربما لأني منغمسة في ذاتي بل غارقة فيها ، لا أصغي إلا لما يصخب في رأسي من أفكار وذكريات ، ولا أرى سوى الضباب الكثيفالتي تطلقه حرائق باطني .

جاري المتجهم ينظر إلي ويبتسم ! رباه ما أجمل ابتسامته ! كيف تحول هذا الإنسان مما كان عليه إلى ذلك الوجه الذي يشع دفئاً

ومحبة . بادلته الابتسام ولم أعلم لم نهضت من مقعدي ؟! ,
واتجهت نحوه وجلست جواره ومددت يدي كي أصافحه ؛ فتخلت يده اليمني عن العصا عاجية الرأس التي يتوكأ عليها , ومد إلي كفا هائلة الحجم معروقة , وإن كانت نحيلة مرتعشة ، وأطبق كفه على كفي وأنا أقول : كيف حالك يا سيدي

فيرد : بخير حال يا ابنتي

فأقول والابتسامة لم تغادر شفتي مشيرة بعيني لكفينا : واضح أنك بخير حال فأنت تكاد تسحق كفي

ابتسم لدعابتي ابتسامة عريضة , وترك كفي وقال :

ربما مازال في ذلك الشيخ الفاني بعض القوة

أرجعت يدي وشبكتها بالأخرى ,ولا أعلم ما الذي جعلني أنظر في عينيه التي اكتشفت أن لها لوناً غريباً يجمع بين الزرقة والرمادية , ورغماً عني وكأنني لست أنا وجدت نفسي أسأله ثانية بحرارة : كيف حالك ؟

يبدو أن سؤالي لم يكن موفقا , فقد تلاشت تلك الابتسامة الساحرة التى كانت تضىء وجهه , وعلته جهامته الأولى , وأطلت من عينيه التماعة عبارات حبيسة , فتنهد وقال بصوت خفيض لا يكاد يسمع : بخير حال

ثم أشاح بوجهه فجأة ونظر عبر النافذة , وأشار بحماس طفل : هل ترين تلك البناية ؟ . . هنا كنت أسكن ؛ أبديت إعجابي بالبناية والشارع والحي الذي نمر عبره متجهين إلى وجهتنا , وسألته – وليتني ما سألت – عن السبب وراء انتقاله لذلك المجمع السكني المغلق الذي نعيش فيه , فانبرى يقص علي حكاياته منذ كان ضابطا في الجيش , ووضع يده على كتفه الأيسر يتحسس ندبته القديمة جراء شظية من قنبلة انفجرت بقربه , وسببت له تلك الندبة ، كنت استمع إليه بانبهار . .أي حياة حافلة عاشها هذا الرجل ! أية أهوال رآها ! وأي سلطة , وأي نفوذ!. . لقد حارب وسافر بعد انتهاء الحرب , وجاب العالم كمبعوث دبلوماسي وعاد ليعمل

بالسياسة , وها هو الآن شيخ فانٍ مهدم يجلس في حافلة بائسة , يطلق زفراته على نوافذها ويرثي لحاله

استرسل يقص علي حكاياته , حتى ألقى بما اتسعت له عيناي من الصدمة والذهول . . أنه لا يركب الحافلة كي يذهب إلى أى مكان ! أنه يعيش وحده فيستيقظ في الخامسة فجرا , ويستقل الحافلة الأولى فيذهب بها إلى حيث تذهب , ويترجل منها متجولا في شوارع يعرفها لمدة ساعة أو اثنتين , ثم يعود ليستقل الحافلة عائدا إلى البيت , وأحيانا يجلس بالساعات على مقهى يحبه , ويرجع وقت الغروب ليستقل الحافلة .

لم يبد أي فضول لمعرفة قصتي , ولم يسألني حتى عن اسمي , بل راح يحصي مناصبه الرفيعة ومعارفه المرموقة ويعرض مساعدته التي لم أطلبها , ويلح في طلب سرد أية مشكلة أعاني منها كي يبادر بحلها .

كنت ابتسم له مجاملة , وأعلم السر خلف عرضه السخي . . إنه لا يشعر أن له فائدة . . لم يعد سيادته ذو أي سيادة . . حتى

سيادته على نفسه , قد بدأ منذ سنين يفقدها . صارت يداه الثابتتان اللتان عرفتا البنادق والقنابل, وصافحت الملوك والرؤساء, ترتجفان . . وصارت قدماه اللتان جابتا العالم لا تقويان على الوقوف . . ليتني ما سألته . . ليتني لم أنهض من مقعدي . إن إحساسه بعدم الجدوى يعمقه تاريخ طويل من السلطة والنفوذ ، لست أدري إن كانت تلك الذكريات تشكل له مواساة أم مأساة . ولكني أعلم أن تجهمي أنا وإحساسي بعدم الجدوى هي مأساة لا عزاء لها.

استهلك حديثنا الطويل الوقت الذي تستغرقه الحافلة للوصول , فتوقفت وبدأ الركاب في الترجل منها , فمددت يدي وصافحت الرجل على أمل في لقاء قريب .

ثم ترجلت أولا لأن من الأشياء القليلة التي أعلمها عن جاري المتجهم كبرياءه الذي يجعله يرفض مساعدة أي إنسان يعرض مساعدته في الترجل من الحافلة .

ترجلت أنا ومشيت وعند المنحنى الذي تقبع عنده بنايتي نظرت خلفي فوجدته يترجل من الحافلة . . مرتجفا, محني الظهر , وقد عاد إليه الصمت والتجهم

أشحت بناظري عنه وأكملت طريقي نحو بيتي .

ولم يكن يدور في راسي سوى فكرة واحدة , وسؤال واحد . كيف يشعر إنسان كهذا , عاش حياة كهذه بعدم الجدوى ؟

أعلم تماما لم أشعر أنا بمشاعر كهذه . . ولكن هو الذي رأى كل شيء وخبر الحياة وظفر منها بكل شيء . . لماذا يشعر بعدم جدواه؟

ربما كان العمر الذي يقترب من نهايته . . وربما رأيته وسمعته كي أنتبه ولاأكون مثله .

زهرة

شرفتي . . ملاذي الآمن الوحيد وسط هذا الجحيم ،
كانت هذه أولى طوارق خواطري بعد أن فتحت عيني في صباح ذلك اليوم الذي تمنيت أن يكون جميلا .
أنهض من الفراش متثاقلة . . ولولا عادتي النهوض والجلوس ساعتين على الأقل في شرفتي التي جعلتها عامرة بالأزهار والورود والرياحين ، واحتساء قهوتي الصباحية فيها . . ما استطعت النهوض من فراشي

قبل الاغتسال وقبل تغيير ثياب النوم وقبل طعام الفطور ، أتجه نحو المطبخ لعمل قهوتي المعطرة . . أصنعها بعناية وتمهل ، وأحملها بحرص في طريقي نحو الشرفة .
أخرج من المطبخ ، وأمر خلال غرفة المعيشة و . . مهلا ! ما هذا ! ؟

زهرتي البنفسجية التي أطلت انتظارها كي تتفتح ، فتفتحت معها روحي التي تعشق فرادة لونها ورقيق شذاها . . زهرتي البنفسجية النفيسة التي كانت ترصع بوهجها الحنون سواد أيامي . . زهرتي

تلك الوحيدة مثلي ، كانت ملقاة بإهمال على الطاولة التي تتوسط غرفة المعيشة !

هرعت نحوها وحملتها كأنها طفلي المريض ، فوجدتها طفلي الميت .

تركت قدح القهوة يسقط من يدي واتجهت نحو الشرفة .

أمل واهٍ يدفعني ، وخاطر يهمس لي أنها ربما كانت زهرة أخرى تشبهها . أعرف ما غرست بيدي وأعرف أنها هي ، ولكني أسرع نحو الشرفة فأرى عودها النحيل عاريا إلا من ورقة خضراء حائلة اللون . . ربما من الحزن .

ارتميت على مقعد قريب ، ورفعت الزهرة إلى شفتي ولثمتها فبللتها عبراتي التي انحدرت بصمت .

يا ربي . . أي جحيم هذا ! أي جرم اقترفته كي تعاقبني بمعاشرة تلك الوحوش !

الشرفة عامرة بالأزهار والورود ، لمَ لم تمتد يد القاطف الأثيم سوى لتلك الزهرة ؟

كلهم خرجوا . . أنا وحدي . . أنا وجثة زهرتي المغدور بها . . بل أنا المغدور بها ، المحطم عزاؤها الزهيد. .

لم أشعر بمرور الوقت إلا بعد أن لسعتني شمس الظهيرة حين مالت فدخلت الشرفة , وسقطت على وجهي المبلل بدموعي ، فنهضت .

مواعيد عودتهم وشيكة ، ولا أرغب في خوض شجار يستهلك ما بقي من روحي.

أفرغت بعض ما في صدري بالبكاء ، وشعرت ببعض الراحة والعزاء ، وكأن روح زهرتي البنفسجية أعارتني غرائزها فانتعشت روحي بقطرات الدموع , كما كانت تنتعش هي بقطرات الندى عندما تبلل وريقاتها المخملية . .

تحسست نعومة أوراقها بأطراف أنامي ، ورفعتها نحو أنفي لأستنشق شذاها الحبيب ، ثم مررتها على وجنتي فكدت أبكي من جديد، لولا مرور خاطر لا أعرف مصدره برأسي ، ربما كان مصدره تلك الروح الخضراء الطيبة . . خاطر جعلني أنهض كالمسحورة ، وأغتسل وأرتدي ثيابا رياضية خفيفة .

سوف أخرج للتنزه قليلا في الممر الواقع خلف المدرسة القريبة . . ممر طويل مسيج بأشجار مبهجة قصيرة ، تحتجز خلفها أحواض الورود ذات الألوان العديدة .

وضعت زهرتي بعد أن ودعتها بقبلة وسط ألبوم صور طفولتي ، وحملت مفاتيحي وهاتفي المحمول , وخرجت أول ما لاح لي في بداية الممر الطويل كانت جحافل الأطفال الصاخبين ، يتزاحمون ويتمازحون ويتدافعون في طريق عودتهم إلى منازلهم تمهلت قليلا ، وتوجهت نحو حانوت قريب لأبتاع زجاجة ماء صغيرة ريثما ينتهي صخب الصغار الذي سرعان ما انتهى ، فاتجهت نحو بداية الممر أكاد أعانق كل شجرة فيه، وألثم كل زهرة مدفوعة بخاطر روح زهرتي البنفسجية الطيبة أقبلت على الممر السحري أمشي فيه بهدوء الخالي ، حتى وجدت طفل يجري نحوي وفي يده زهرة بنفسجية

انطلق الطفل يجري حتى كاد يصطدم بي ، ثم دار على عقبيه , وعاد يجري نحو نهاية الممر , وفي طريق عودته ألقى الزهرة من يده , وراح يقطف غيرها . انتابني غضب جنوني ، وتحركت في صدري أفواج كراهية لم أقو على دفعها ، ووجدت نفسي أركض نحو الطفل

وأختطف منه الزهرة ، وألوح بها في وجهه بوحشية ، صارخة فيه صراخا جعل وجهه يمتقع , وجعله يرفع ذراعيه ليحمي بهما وجهه ثم ينفجر باكيا ما إن علا صراخ الطفل ببكاءه حتى وجدت امرأة شابة تركض نحوه وفي عينيها لوعة وتوحش ، فعرفت أنها أمه .

احتضنته بقوة ، ونظرت نحوي بتحفز الموشك على خوض قتال ضارٍ . . ولكني لم أكن أقل منها تحفزا ، وإن كنت أكثر منها جنونا !

وجدت نفسي أصرخ بها كما صرخت بطفلها ، واتهمهما بالتبلد والتوحش والتخلف وأتهمها هي بشكل خاص بالفشل في تربية طفلها الأحمق.

حدقت بي الأم, وحل محل التحفز والتنمر في عينيها الحذر والتوجس . . لم تعلم ما فعله طفلها بالضبط ، ولكن صمتها جعلني أدرك أنها تعرف جيدا مدى سوء أدبه . . "لا شك أنه فعل كارثة ما" هذا ما قرأته في ملامحها التي اكتست بحرج وخجل .

تركتها وطفلها سيئ الأدب بعد أن أمطرتها بوابل من التقريع المباشر

, والتلميح غير المباشر إلى أنها نفسها عديمة الأدب والتربية , لذلك فشلت في تربية ذلك المسخ الصغير !

أسرعت بالعودة إلى بيتي , وما إن قطعت بعض الأمتار والتقطت أنفاسي المتقطعة حتى عاد صوابي شيئا فشيئا ، وأدركت فداحة ما فعلت . . رباه . . لقد فقدت عقلي !

صرت أعنف الأطفال وأتشاجر مع الأمهات !

شردت خواطري ، ولم أعد أبصر معالم طريقي ، وكأن ما تحملني ليست قدميّ ، ووجدت نفسي داخل البيت من جديد .

اتجهت نحو الشرفة، وتحاشيت النظر للأصيص الفارغ ، وأمسكت هاتفي المحمول وتصفحت قليلا مواقع التواصل الاجتماعي ، فخطرت لي فكرة أن أكتب كل ما مررت به اليوم في منشور أشاركه مع أصدقائي الافتراضيين . ربما إذا انتقلت من الواقعي إلى الافتراضي لا تنتقل معي هموم الواقع وبشاعاته .

كتبت وكتبت وكتبت . . كتبت كل شيء . . منذ لحظات الاستيقاظ الأولى ورؤية زهرتي البنفسجية ذبيحة على طاولة حجرة المعيشة , وحتى عدت لمنزلي بعد مغامرة الشجار مع الأم الشابة .

كانت أصابعي تجري على الحروف بسرعة مذهلة ، ومع كل كلمة تشكلها حروفي ، كانت همومي تنساب مع الحروف وتتكتل مع الكلمات ، وأشعر رويدا رويدا بالخفة والتحرر .

أنهيت كتابة منشوري الطويل ، وقرأته عدة مرات قبل مشاركته على صفحتي الشخصية على موقع التواصل الاجتماعي "فيسبوك"

وقررت تذييله بزهرة بنفسجية تكريما لروح زهرتي الحبيبة .

بحثت في ملصقات الزهور ، فوجدت ألواناً كثيرة لها ، ليس من بينها لون زهرتي ! . . أين ذهبت ؟ !

كنت معتادة على إرفاق ملصق تلك الزهرة بكل رسالة أرسلها، وكل تعليق أكتبه . أين ذهبت ؟ !

شهقت بقوة أحاول تهدئة نفسي . . لا أريد العودة لحالة جنوني الأولى .

اتصلت بصديقة لي وسألتها عن ملصق الزهرة البنفسجية ، فظلت لدقائق غير مصدقة لما أسألها عنه فكررت السؤال بإلحاح ، وطلبت منها الدخول إلى موقع التواصل وتجربة الأمر . على مضض وافقت وجربت، ثم أخبرتني أن الزهرة البنفسجية لم تعد موجودة بين

الملصقات ، وأنها ولا شك قد حذفت في التحديث الأخير .

التحديث الأخير . . التحديث الأخير . . ظللت أردد الجملة المشئومة عدة مرات ، أغلقت خلالها الخط في وجه صديقتي ! . .

لا شك أنها الآن تظن بعقلي الظنون

آه يا زهرتي الحبيبة البائسة . . حتى العالم الافتراضي يضيق بك ويحذفك من آخر تحديثاته !

أي أسف أنا مدينة لك به يا زهرتي الحبيبة ! . . لم أحاول حتى حفظ اسمك الذي قاله لي بائع الزهور !

عدت إلى المنشور وذيلته بتوقيع "زهرة دون اسم" وشاركته على صفحتي الشخصية ، وتصفحت في الموقع قليلا، فوجدت صوراً لصديقة قديمة وسط حديقة فائقة الجمال والتنظيم . . تصفحت الصور بعناية، وقد بثت فيّ بعض البهجة ، وعدت لتصفح "الفيسبوك" في صفحته الرئيسية فوجدت صديقة أخرى وقد نشرت صورا تشبه صور صديقتي الأولى !

فتحت منشور الصديقة ، وقرأت ما كتبته فيه . . "معرض زهور الربيع "

أي معرض هذا ؟ و لمَ لم أسمع عنه من قبل ؟

وضعت الجملة على محرك البحث ، وعرفت كل شيء عنه .

معرض للزهور والورود والنباتات النادرة ، يعرض ويبيع كل أنواع الزهور والنباتات .

نظرت نحو الإصيص الفارغ ، وللمرة الأولى هذا اليوم . . ابتسمت

أعرف ماذا سأفعل . . المعرض يغلق أبوابه في الساعة الثامنة، وكانت الساعة لم تتجاوز الخامسة بعد .

سوف أذهب وأجلب من معرض الزهور كل أنواع الزهور البنفسجية !

وسوف أحرص هذه المرة على معرفة أسمائها ، وسوف أتذكرها جيدا

استبدلت ثيابي بسرعة ، وأخرجت زهرتي الحبيبة من مثواها الأخير بين دفتي ألبوم صوري ، ولثمتها .

آه يا زهرتي الحبيبة . . لولاكِ ما عرفت بمعرض الزهور ولا فكرت في زيارته . . مازلتِ حتى بعد موتكِ تضيئين لي طريق الأمل والعزاء.

أعدتها لمكانها وأسرعت للخروج ، فقابلت ابنتي الوسطى ما إن فتحت باب المنزل، عائدة من عملها

سألتني بدهشة : إلى أين ؟

فقلت بمرح واستعجال : زيارة لصديق قديم.

ضيف ثقيل

يبدو أن اعتيادي الكتابة عوضا عن الحديث ، أصبح متلازمتي العنيدة . في كل الأحوال تخرج كلماتي المكتوبة أكثر وضوحا من المنطوقة . . لا تعجزني الكتابة عن ملاحقة الأفكار التي تتسارع بذهني فتمنعني من إجادة التعبير عنها بدقة كما يفعل القول ، ولا تختنق الكلمات داخل حلقي لما يجيش في نفسي من انفعالات ينقبض وينبسط لها قلبي .

ولا يصيبني التوتر من اهتياج مشاعري واضطرابها فرحا أو غضبا فيبتعد المعنى ويفارقني ، وتبقى الكلمات مثل أحرف مبعثرة في جمل غير مفهومة !

أكتب وأنا في مكاني الجديد على أريكتي , وقبل نية مغادرتها غدا في عودة غير موقوتة إلى فراشي الرفيق ، الذي قمت بمغادرتة أيضا منذ ما يقارب الإسبوع ، في مغادرة هي الأخرى كانت غير معلومةالمدى , فقد كانت الحسابات تميل إلى مساحة زمنية مفتوحة

الأريكة لا تعرضني لخوض أخطار المرور أمام مرآتي الكبيرة في حجرة نومي ، والمرايا الأربعة الأخرى في صوان ملابسي الكبير . .

حيثما اتجهت تحاصرني المرايا . .

ينغلق باب الصوان فأبصر صورتي في مرآته ، فلا أعرفني . . أو لاأريد أن أصدق حقيقة أن هذه هيأنا ، أنا الوحيدة بكل ما حولي ومن حولي . . الغريبة في بيتي . الخالية البال رغم امتلاء قلبي بالحب والحياة

أشيح بوجهي عن المرآة هرباً مني, أو هرباً منها, أو هرباً مما لست أعرفه ..

نبض قلبي يخبرني أنه ما زال في الجسد روح تحييه . .

أصاب الشيب روحي مبكرا، لكنه لم يتسلل بعد إلى خارجي .

.صورتي توحي بفرحة طفولية ساذجة وكأنني لم أختبر الحياة بعد , ولم أسلك دروبها , ولم يطرق بابي حزن ولا شجن , أو سطر في فصول حياتي حرفاً قد أبدل طفولتي شباباً طائشاً أو بلوغا ناضجا .

بشرتي مازالت نضرة، ومع إضفاء بعض لمسات من مساحيق التجميل أبدو أصغر من سني بكثير ، وخصلة شعري الأمامية البيضاء لم تضف لعمري يوماً واحدا ، بل زادت من لفت الأنظار إلي , و كانت موضوعا محببا للتندر حول العامل الوراثي الذي أظهرها مبكراً !

وكان لهروبي من الأسئلة, وعدم إعطائي أية إجابات , عظيم الأثر في تغطية كل ما أخفيه , وإن كان قد لفني بغموض لم أقصده .

تمنيت من ثقل أحمالي أن أعود لكهفي البدائي القديم، وأن يأتيني رجلي الهمجي في كل ليلة , حاملا على كتفيه صيده الثمين ، فأفرح به وبصيده . . نأكل ونلهو، وفي الصباح , وبعد أن يغادرني في رحلة جديدة للبحث عن صيد آخر يأمن غذاءنا . . أجلس أنا في كهفي أمشط شعر صغاري حتى عودته المسائية الجديدة .
لا شك أن انتظار رجلي البدائي بشوق وقلق , خير من الانتظار المتوجس الذي أكابده كل يوم خشية قدوم ضيفي الثقيل الذي يقتحمني و يبعثر ما عانيت في لملمته وتنظيمه .

لا شك أن حال الزوجة البدائية الأولى خير من حالى , وبالها أهدأ من بالي . . أحلق في سماء الخيال , وأسأل نفسي . . ماذا لو كنت مكانها ؟

وماذا عساي أن أفعل مع كل قلق ينتابني على زوجي الغائب وهو يصارع الوحوش من أجل أماننا !؟

وماذا أفعل حيال همجية قومي الأولين , ونحن لا نعرف سوى حكمة البقاء للأقوى ؟

وما حيلتي إذا طال غيابه عنا , وفقدنا الأمل في عودته ؟

أفقت من أمنيتي المستحيلة المقلقة ، على أن اليوم كالبارحة . . نفس الأرض ونفس الغابة . . حتى نحن كما نحن . . نفس الوحوش الآدمية وإن كانت مكسوة بأنيق الثياب وثمين العطور .

وربما نحن ليس كما كنا، لا أعرف من أنا ولا من نحن ولا من هم, إلا إذا نظرت خلفي فرأيت حياتي بين قنوط وأمل, وفرح وحزن . . ولا أجلس لأفتش فيما مضى إلا عندما يطرق ضيفي الثقيل المعتاد بابي .

غير مرة يدخل بلا استئذان ولا استحياء..غير منتبه لظرف , ولا متحر لوقت الزيارة.

معه هديته المعتادة . . صندوق متنوع المحتوى . .جرس تنبيه ، زجاجة شراب مختلط النكهات ، وأحيانا ذي نكهة واحدة..وعلبة ألوان !

اليوم دق بابي ذاك الضيف، وعلى غير عادته – فقد كان عنيفا وقحا يركل الباب لفتحه – كان الطرق اليوم رقيقا حتى ظننت أنه ليس هو. .

فتحت الباب , وأوليته ظهري, في إشارة صريحة بعدم الرغبة في استقباله ، وذهبت أكمل قراءة كتابي الذي بيدي..
قفز أمامي بإبتسامته المعهودة , وإن كانت أقل سماجة من المعتاد . . قفز وهو يقول : إليك هديتي .. صندوقكالمعتاد. .لمأعتد المجيئ إليك فارغ اليدين

أشحت بنظري بعيدا عنه وعلى وجهي علامات الامتعاض الشديد . . عله يرحل..

أتاني من يساري , وسأل : ألا ينتابك الفضول ؟

ألا تريدين أن تطلعي على ما بداخل الصندوق هذه المرة ؟

لم أكن أشعر بأي فضول..كيف وقد اعتدت هديته المتكررة عشرات المرات !

لكن القنوط من محاولة إبعاده عن ناظري كان يستبد بي ، فاعتدلت في جلستي بعد أن تركت كتابي جانبا , وأغمضت عيني متحاشية النظر إليه، ربما يستحي فيذهب عني..

شعرت بخطواته الثقيلة حين أتى من يساري , وبأنفاسه حارة وهو يهمس في أذني : لا جرس تنبيه اليوم ، فأنا أعلم أنكِ أصبحت في انتظاري طيلة الوقت ..كما أرى أنك مرحبة بي مهما تظاهرت بعكس ذلك..كل ما يصدر منكمن تبرم وتأفف . . لا أعيره أي

اهتمام ، وأينما وليت وجهك ستجدينني أمامك ، ولن يبعدني عن ناظريك إغماض عينيك .

رفعت كفي وأحطت بهما رأسيكي لا أسمعه ، فأكمل وقد رق صوته : ولن تحول كفيك دون سماعي , كما لم أحضر معي اليوم أي شراب , بعد أن اذقتك كل ما رغبت فيه ، فما عاد من لذة أمنحها إياك بشراب . . وما بقي في جعبتي من مذاق أشعر إنك راغبة فيه. . أما علبة الألوان فلا حاجة لك بها ، بعد أن أخترت لك اليوم لونا واحدا. . صديقتي..أنا لم أكن أبدا ضيفا ثقيلا..ولم أكن أبدا ذلك الشرير ذي الابتسامة السمجة..أنت من كانت تدعوني لأسامرك ..أنت من طلبت مني إحضار صندوق الهدايا.. أنت من أمسكت بجرس التنبيه , وكنت توقظين به ما شئت من الذكريات ، وتصبين كؤوس الشراب فتتذوقي ما تريدين من حلوه ومره . .وأنت من كانت تختار من علبة الألوان لونا ، تلونين به فراغ لحظاتك الممتدة لساعات . . فكان اختيارك أنت أن تكون لحظات

حزن أو سعادة . . أتيتك اليوم بصندوق فارغ .. هو هديتي الأخيرة إليك . . بنقش يحمل اسمي

كان هذا حديثه معي ..وكانت تلك هي زيارته الأخيرة..قبل أن يغادرني وأغادره .

لم أصدق أنها زيارته الأخيرة إلا عندما افتقدته فدعوته, فلم يلبي . . عدت أهرب من المرايا , وأغير الكتب ومواضع النوم والجلوس , ومازال الصندوق الفارغ أمامي . . لا أجرؤ على الاقتراب منه .

نهر جديد

عند الصخرة الكبيرة الصماء التقيا . . ارتطمت أمواجه العنيفة الهادرة بجانب الصخرة ، فخف عنفوانه وصخبه، وانساب من فوق الصخرة ليلتقي بأمواجها التي تكاد تكون لفرط رقتها ساكنة .

هو النهر العنيف . . الأستاذ الكبير . . ينظر إلى تلاميذه بمدرج الجامعة، يثني على كل واحد منهم بثناء يليق به .

يراقب مع كل كلمة وقعها . . يتفرس الوجوه والملامح . . يترقب أثر ما قال في عيونهم . . ينتظر إطراءا أكبر في المقابل أو ابتسامة متهيبة يرضيه رؤيتها .

مسكين هو . . كالماء المنحدر من أعالي الجبال ، لا يجد طريقا يسلكه سوى بين الصخور الناتئة . . لذلك يمضي هادراً مزبجراً ، لا تعرف ضفافه رقه الزهور أو وداعة الحمام . . لا ضفاف سوى الجدران الصخرية الشاهقة ، تتلاطم بين جنباتها موجات غضبه وأمله واشتياقه .

كلما علت قيمته ، تعالى غروره ، وتعاظم إحساسه بذاته ، صوت

الهدير يصم أذنيه ، ويحدثه بأنه الأعلم والأرقى . . لكن شيء ما في نفسه كان يلومه أحياناً . . يجذبه فيهدأ ، ويشده شداً إلى إنسانيته الرصينة التي هجرها . . يذكّره أنه النهر الكبير ، ويجب عليه أن يكون سبباً في حياة كبيرة . . لكن جدران حياته الصخرية القاسية كانت أعلى من كل أمل .

لم يكن هكذا في ماضيه القريب ، لم يعتد منذ صغره على حب ذاته والزهو بها إلى هذا الحد . . الأستاذ الكبير ابن العائلة العريقة شعر بالتميز والأصالة منذ الصغر، وكعادة العائلات الكريمة تربى على التواضع وحسن الخلق وصيانة السمعة ورفعة النفس.

طفل مهذب ، ثم فتى نابه يلجأ إليه زملائه لفهم ما استعصى عليهم من دروس الرياضيات ، محط إعجاب ، ومثار جدل . . تُحير أسئلته عقول الزملاء والأساتذة . . لا يلتفت لتهكم ولا يعبأ بانتقاد .

انتهى من مشروع تخرجه الذي منحه فرصة استكمال دراسته في أوروبا ، التفتت له الأنظار وبات حديث جامعته والجامعات الأخرى . . أكمل دراسته وعاد ، وحل ضيفاً على وسائل الإعلام

وصار حديث الصحف .

له مشروع طموح لتطوير المحركات واستغلال الطاقة . . انهالت عليه العروض من شركات محلية وأجنبية رغبة في السبق لتطبيق ما توصل إليه . . شعر بالفخر بذاته ، وأنه قد بدأ في جني ثمار يستحقها .

اتخذ قراره بعد تفكير متأن , فالتحق بإحدى الشركات العالمية ثم سافر ليعمل في مصنع الشركة الأم وتوافرت كافة سبل التطبيق لمشروعه الطموح . . وجد نفسه وسط طاقم عمل من جنسيات مختلفة . . هو فقط المسخر له كل ما يريد .

أعوام من الدراسة والتجارب فالإنتاج فالنجاح . . نجاح تردد صداه حتى وصل بلده المتروك. .

النهر المغامر يهدأ قليلا وتنساب أمواجه بين ضفاف ومروج يرتاح لها وترتاح له .

إلى أن قامت حكومة وطنه باستدعاءه . . رأس الحكومة من رجال الصناعة ويعلم جيدا فائدة خبراته ، وهو يعده برئاسة في الجامعة ورئاسة أخرى في مصنع كبير ، وربما وزارة قريبة .. لكنه كان دائم التردد، لا يميل إلى القبول ، ويعلم أنه إذا عاد فسوف يقيد بما لا

حصر له من قيود أكاديمية وسياسية واجتماعية . . قيود تفزع منها طبيعه نهره المتدفق الجياش .. ولكنه عاد !

بعد سنوات طويلة من رفض كل تلك العروض ، قبل العرض الأخير . . دفعه شوق جارف لا يُدفع كي يعود إلى وطنه، فقبل أن يكون مستشاراً للدولة في مجال التطوير والصناعة ، وأستاذاً غير متفرغ بعدد من الكليات . . وعاد .

أحيط منذ أن وطأت قدماه أرض الوطن بصنوفٍ من الترحاب لم يعتدها , وسيل من الألقاب والنعوت . . فهو الأستاذ والدكتور والعالم والعبقري ، ربما هى وسيلة للتعبير عن الاحترام فنحن مازلنا بالشرق نجل ونوقر بالكثير من المبالغة !

قضى شهوره الأولى في الدهشة والنفور ! كل شيء تغير ! الناس والأماكن . . السلوك والضمائر.

أهي طبيعة الشرق ؟! . . ألم يكن منذ ربع قرن مضى شرقيا ومازال ؟ !

أهي السياسة والاقتصاد وضبابية المستقبل ؟. . !

لقد زار من البلدان الأفقر والأكثر جهلاً ومرضاً ولم ير ذلك السيل الجارف من الجشع , والنفاق . والفساد,والانحطاط . . أي جحيم صارت تضطرم نيرانه في وطنه , وتحرق ذكرياته الحبيبة وآماله العريضة ذهب ككل مغترب عائد إلى ضفاف النيل . . روَّعه أن الماء ساكن آسن ! . . تحركت فيه طبيعته القديمة . . سوف يكون مصيره كمصير نهر وطنه ! سوف تهدأ أمواجه الهادرة الطموح ، ويسكن جريان ماؤه المندفع لا تحده حدود .

يومها أضمر نية العودة ، سوف يرجع من حيث كان ليستأنف رحلته نحو مصب يجهله ، فقط يعذبه أنه يعرف أن هذا المصب المجهول لن يكون هنا..

النهر المغامر يوشك على الانتفاض ليستكمل رحلته . . و لكنه التقى قبل الانتفاض "نادرة"

نهر هادئ هي ، نجم له وهج نابض ساطع في سماء ذلك الجحيم الذى يطوقه ، سديم هش من النور والأنوثة ، نهر يتدفق بين ضفاف وادعة ، لم يعرف جدران صخرية جافة مثل جدران ضفافه. .

مدفوعة إليه بقوة لا تعرفها ، يكبرها بعشرين عاما ، كهل تكسوه علامات الزمن..

كانت تعمل بمكتب أحد الوزراء ، وهناك وجدها ووجدته ، جميلة ذات ابتسامة ساحرة ، وعينان لامعتان فرحتان. .

الطفلة الصغرى المدللة بين ثلاث شقيقات ، لم تعرف حرمان من عاطفة أبوة ولا أمومة ، عرفت خطف الأبصار وتقطع الأنفاس لرؤيتها منذ صباها . . مرحة تحب التميز والظهور . . محبة مخلصة وحسنة النية .

جمالها كما هو الحال دائما كان نقمة ، وهدوء صفحة ماء نهرها الوادع كان دعوة مفتوحة لكل ملاح مغامر. .

عرفت نجم كرة القدم ذائع الشهرة ، كان حديث الصحف والبرامج التليفزيونية . . طفل ساذج . . كانت تصفه دائما بالأحمق ! يرتبك ولا يعرف ماذا يقول من عبارات المحبة عند اللقاء بها . . ولكن سرعان ما أدرك ساحر الكرة بعدما التفت خلفه ، أن هناك صفاً من الجميلات ينتظرن دورهن معه . . فذهب "الأحمق" دون رجعة !

.

ثم الطيار الأنيق ذو الكلمات الساحرة والطلة الباهرة . . انتظرت عودته من رحلاته القصيرة واستقبلته ليذهب بها لأرقى الأماكن ، وتواعدا مع مجموعة من الأصدقاء المختارة من ذات الطبقة الراقية التي ينتمي إليها . . يزهو بها . . يعاملها أمامهم معاملة الأميرات، أما فيما بينهما فهو شيء آخر . . خليط من الجنون المطبق والغيرة العمياء والسادية المريضة ! ينهال عليها بالأسئلة التي يتبعها الصياح والصراخ . . ثم يكيل لها السباب والشتائم . . عانت معه كثيراً لكنها كانت توجد له المبررات كي تبقى معه .

لم يخلصها منه سوى حادث عفوي ، عندما اعتدى بالضرب على زميله بالعمل مسبباً له ندبة دائمة في وجهه، فقامت شركته بفصله، سافر لبلد آخر بهدف الهجرة دون أن يخبرها . .

وذهب "الراقي" دون وداع. !

تدفق نهرها بهدوء كسير ، ورتابة ملول . . حتى التقت به ، كان اللقاء هو صخرتهما ، نقطة تغير عندها مصيرهما إلى الأبد .

تطلع هو من مجراه الجاف المجدب فشاهد ضفافها الخضراء . . فاختار تحطيم عنف أمواجه على صخرة اللقاء ، وانصب في مجراها

ليعيد إليه حياة كادت تنساها ، عرفت منذ وقعت عيناها عليه أي رجل هو ، وأي صخب هادر سوف يعصف بماؤها الساكن ، واشتاقت إلى إحساس لم تجربه !

التقى نهره بنهرها ، وتلقفته هي بأذرع مفتوحة , وصدر أرحب من سهول الأرض . . وللمرة الأولى في حياته عرف نهره اخضرار الضفاف وهدوء السير . وللمرة الأولى في حياتها عرفت مغامرة الاندفاع في حياة ملؤها الحب والأمل .

عوتبت من كل من يعرفها . . انبرى لها المعارف والأصدقاء ناصحين ، لكنها لم تهتم .

قيل لها أن الهوة العمرية بينهما سوف تعذبها ، وأن هوة أخرى فكرية وثقافية سوف تتسع حتى تلتهم كل حب وكل اتفاق . . ولكنها كانت مدفوعة إليه بحنين النهر للمصب , وشوق الناقص كي يكتمل ، نهران صارا نهرا واحدا ! والآن على ضفاف نهر وطنهما الحبيب ، ينظران بعطف نحو الماء الآسن ويبتسمان.

جيرسي

أنظر حولي لفراغ غرفتي الشبيه بفراغ قلبي ، وأرهف السمع . . ربما ما أسمعه الآن هو حقا همس خطواته المعتادة ، عندما تلامس أظافره سطح أرضية الردهة المؤدية إلى غرفتي.

أتلفت . . أدير رأسي نحو الباب ، أنتظر دخوله المرح . . لقد تأخر . تحدثني نفسي أنه ربما توقف في طريقه إلي ليرشف بعض الماء ، وربما هو الآن يمارس دعابته المفضلة معي فيخفي نفسه عني ، فأنهض من مجلسي لأبحث عنه عندما أناديه فلا يلبي . . عندها يفتح فمه ويخرج لسانه ويتقافز حولي فرحا بقدومي.

أنتظره لكنه لا يأتي . . حينها انتبهت لخداع مخيلتي ، واشتياق حواسي إليه.

عيناه الكبيرتان كانتا نوافذ روحه الطيبة التي ينفذ منها نور الكون إلى روحي . .

رأيت البشر من كل الأعراق ، وخالطت كل الجنسيات ، وتعلمت

اللغات ، ولكني لم أتواصل مع كائن حي آخر كما تواصلت معه . . كان يكفيني منه نظرة لائمة أو نباح رقيق ، كي أحتضنه وأواسيه لانشغالي عنه ، وكان يكفيه مني نظرة محذرة أو نطق اسمه بنبرة غاضبة كي يكف عما يفعله ويهرع نحوي ليسترضيني بأنين مستعطف .

حتى في أيامه الأخيرة التي كف فيها بصره ، وكل سمعه ، وضعف جسده حتى لم يعد يقوى على الوقوف . . كانت عيناه لا تكفان عن الكلام معي . . ينظر إلي ويسأل ، ماذا ألم بي ؟ لماذا لا أقوى على القفز إليكِ ؟ هل تلك هي النهاية حقا ؟ هل يعني هذا أن حضنك الدافئ لن يحتويني ثانية ؟

ينظر إلى نصفه الخلفي وهو يجرجره وفي عينيه سؤال حائر، وكأنه يحدث نفسه ، متى هرمت ؟

كنت أسمعه حتى عندما يكلم نفسه . . كنت أسمع خواطره وهو ينظر نحوي غير فاهم ما يحدث له ، كنت أسمع صوته في قلبي يقول . .

منذ أسابيع قليلة بل أيام ، كنت أقفز إلى جانب صديقتي . . لا أعلم كيف أناديها ، فقد عرفتها منذ سنوات وأنا بعد صغير .

منذ أيام كنت أجري لاستقبالها عند عودتها إلى المنزل ، وبوثبات عالية أحاول التعلق بعنقها ، فتضمني إليها لتمطرني قبلاتها الحبيبة بين عيني ، وهي تحدثني بكلمات مرحة لا أفهم منها سوى اسمي .

سمعت نباحه المرح ، وأنينه الخافت ، وحتى أفكاره الخفية ، ولم أجد فيما سمعته منه إلا الصدق والحب

أفقت من شرودي الحزين على صوت نباح حاد ، يأتي من ناحية المطبخ . . قمت من جلستي واتجهت نحو الصوت .

كلب الجيران ، كبير الحجم ، ذهبي الشعر ، يقف على قائمتيه الخلفيتين في الشرفة الخلفية الصغيرة التي تطل على نافذة مطبخي الكبيرة ، وينبح بحماس .

اعتاد هو و"چيرسي" الوقوف في تلك الساعة من النهار وتبادل النباح الرقيق والنظرات الطويلة .

لقد رحل صديقك يا عزيزي ولم يعد لنباحك جدوى فمن تناديه لن يجيب .

في ظـل ابتـسامـة هـبة سعـيد

تركته ودخلت ، فتعالى صوت نباحه وازداد حدة وعصبية . . أعقبه عواء طويل ، فرجعت أنظر إليه من النافذة . . فسكت ! ونظر نحوي وراح يميل رأسه الكبير ويرسل نباحات صغيرة .

يبدو منها أنه يرجوني كي أبقى في النافذة قليلا .

المسكين يفتقد صديقه الراحل ، ويجد في رفقة صاحبته بعض العزاء وقفت واستندت بمرفقي على حافة النافذة ونظرت نحوه ، ففتح فمه وأخرج لسانه وعلا نباحه المرح .

آه ياصديقي الراحل العزيز . . حتى بعد غيابك مازلت تخفف عني مرارة حزني .

سمع الكلب اسمه فخرج من الشرفة يركض . . يبدو أن جارتنا عادت من عملها .

خفف عني هذا الكلب قليلا ، وجعلني ابتسم ابتسامة عريضة ، جعلتني أتذوق ملوحة عبراتي .

جرس الباب . . قمت لأفتح .

كان عامل التوصيل يسلمني ما طلبته من المتجر القريب .

ما أنا تسلمت ما طلبته وكدت أغلق بابي حتى انسلت من بين

قدمي قطة صغيرة ، ركضت بسرعة البرق ، لتدخل إلي الشقة !

ارتبكت قليلا ، ولم أعلم ماذا أصنع .

لا أستطيع ترك الباب مفتوحا ، ولا أستطيع الإمساك بتلك الشيطانة الصغيرة لإخراجها من الشقة .

أغلقت الباب ، ووضعت ما بيدي ، ودخلت المطبخ وأحضرت وعاءا صغيرا به بعض الماء ووضعته خلف باب الشقة ، لاستدراج القطة الصغيرة التي لا أعلم أين ذهبت.

لم أكن في حاجة لاستدراجها ، فما أن وضعت الماء على الأرض حتى أقبلت بسرعة وراحت تلعق الماء بسرعة ، المسكينة تكاد تموت من العطش . . قطة شارع صغيرة وجلة . . لا شك أن هناك من أفزعها لذلك كانت تركض بهذه السرعة . تحسست رأسها فلم تنزعج .

تركتها وجلست على مقعد من الباب ، أنتظرها حتى تفرغ كي أخرجها لتعود من حيث أتت . . لكنها ما إن فرغت حتى اقتربت مني وتمسحت بساقي ، فحملتها .

راحت تلعق يدي بود . . أشعر بقلبها الصغير ينبض في جوف

يدي ، تماما كما كان "چيرسي" عندما أحمله على ذراعي . . ثم التفت على نفسها ونامت وهي تنظر نحوي بعينين ثابتتين .

داعبت رأسها . . وكلمتها كما كنت أكلم صديقي الراحل . . هل أنت أيضا صديقة "چيرسي" . . أم أنك مجرد عابرة دخلت لتشرب ؟

تعالى صوت جرس الباب الذي أجلس بجواره ، ففتحته فقفزت القطة وركضت تخرج بالسرعة التي دخلت بها !

سألتني ابنتي عنها ، فقلت لها أنها صديقة چيرسي ، وتركتها ودخلت غرفتي .

لم أعد أطيق غرفتي منذ رحل . . فهنا كان يلعب وهنا كان ينام . رحل وترك حضني خاويا و . . نباح الكلب الذهبي من جديد ! كلما طافت برأسي ذكراه الحبيبة ، نبح هذا الكلب ، أو اقتحمت بيتي قطة شارع صغيرة شاردة .

حتى في غيابه مازال يعتني بي ، ويخفف عني مرارة فقده . . ويرسل من عالم الأرواح الطاهرة من يواسيني ويؤنس وحدتي بعده .

لم يأت بعد !

الليلة دافئة لاشتوية ولاصيفية ،ولاأعرف لها من الفصول الأربعة مسمى !

في النهار كان الجو حاراً نوعيا فخففت من ملابسي حتي أستطيع التحرك في المنزل والقيام بواجباتي فيه

في المساء احترت ماذا أرتدي قبل الخلود للنوم ، اكتفيت بهاتين القطعتين بنطالي القطني الطويل

وكنزتي القطنية قصيرة الأكمام وهذا غطاءالنوم ذو الوجهين ، اخترت الوجه الذي يطيقه جسدي واغمضت عيني هدوء جميل..والظلام غير مفزع.. سكون رأسي عن التفكير كان الأجمل والأبدع !

لكن النوم أبى أن يأتيني ، وبدأ يلفني أرق لا أعرف له سببا ..

نفضّت عني غطاء النوم عندما تيقنت ألا سبيل الليلة لتلك النعمة الإلهية لكي تغمرني ، ونهضت أدور بغرفتي أبحث عن شيء أفعله لأستهلك به طاقتي اليقظة لعل الباقي منها حتى تلك الساعة المتأخرة هو سبب أرقي ..

غرفتي على سعتها إلا أنها بسيطة ومرتبة ، أستطيع أن أرى وأجد كل شيء فيها دون عناء البحث عنه وتلك ميزة لافائدة منها الآن حيث إنني أبحث بالفعل عن شيء عله يلهيني ، يستغرقني حتى أجد سبيلا للنوم أو يباغتني هو ، بينما أنا ملهية عنه..

في تلك الزاوية شاشة عرض البرامج التلفزيونية ، لكني لم أذكر كم من المرات قد أدرتها فقد كرهت مشاهدة كل مايعرض هذه الأيام من برامج موجهة إما بهدف الدعاية لشيء ما أو بهدف تثبيت فكرة معينة داخل رأس المشاهد ،كلما نشاهده برمجة مقصودة .

وفوق هذا الرف مجموعة من الكتب المتنوعة ، أذكر أنني فتحت كل كتاب فيها وقرأت منه بضع صفحات ولم أكمله ، لا أعلم لماذا يحدث هذا الأمر مع الكثير منا ، أن تحضر كتابا وبشغف تبدأ

القراءة ، ثم سرعان ماتفتر عما بدأت بعد مطالعة بضع صفحات منه!

نظرت إلى رف الكتب المكدسة بعضها فوق بعض ، وأخذت أسحب واحدا تلو الآخر ، أتفرس عناوين الكتب ربما شدني واحد منها لمطالعته حتى يأتيني زائر ليلتي الغائب ، من بين الكتب وجدت كتابين ،لاحظت أني قد قطعت شوطا لابأس به في قراءة كلا منهما ،كان الكتاب الأول كتابا شهيرا يتكلم عن " علم الفراسة " قراءة ملامح الوجه وبعض حركات الجسد وتحليلها في محاولة لفهم الشخصية ، أتذكر أنني كنت أقرأه بنهم .

ونوع من الفضول الكبير لكني قد توقفت حينما بدأت تتكشف لي وجوه من أعرفهم من حولي من بين سطور ما أقرأ !

فهذا الطيب البدين ،كم خدعني بمظهره الضحوك فلم ألحظ أن بدانة كرشه الكبير قد تكون دالة على تقديم مصلحته أولا فهو لم يتواجد أبدا إلا حيث توجد الاستفادة الشخصية له ! فكان يأخذ ولا يعطي شيئا ، وذاك الكريم الرقيق لم أنتبه إلى أنفه الطويل الدقيق

الذي يشك به في كل كلمة أقولها ! وهذه الصديقة الأربعينية اللطيفة لم يلفت إنتباهي قط دقة استقامة حاجبها الذي يبطن عن حسد دفين يسكن خلف ابتسامتها !

تذكرت أنني وقتها قدأغلقت الكتاب عند الوصول إلى هذا الحد من المكاشفة ، فقررت ألا أعاود فتحه الآن ، أما الكتاب الثاني فضحكت سخريةً فور وقوع عيني على عنوانه لما يحمل في نفسي من ذكرى مؤلمة

ومضحكة في آن واحد ،كان كتابا فلسفيا بعنوان " المغالطات المنطقية " ، فتذكرت كلما قرأت فيه ،

وعاودتني ذكرى مكاشفة نفوس من حولي مرة أخرى وتألمت حين تذكرت كيف كان ابتزاز أقرب الناس إلي ،إما بحلو الكلام مرة أو بنظرة عتاب دامعة مرة أخرى حتى أقع في لوم نفسي عما أفعل أنا به فينقلب الأمر وأتغاضى عن خطأه وتقصيره معي!

تألمت أكثر عند الوصول لذكرى أخرى وأنا أقف أمام أحدهم وهو يربكني بسؤاله الملغم حتى أدين نفسي بإجابتي فأصبح أنا المخطئة في جميع الحالات !

أما الذكرى الأكثر إيلاما فكانت محاولة إغضابي الدائمة في أي حديث بيننا حتى أرتبك ويختلط علي الفهم فتضعف حجتي .. وأُهزم..

ذكرى الكتابين أفسدت أجمل مافي ليلتي _ سكون رأسي عن التفكير _ وأضاف إلى أرقي أن اهتاجت رأسي بالأفكار والذكريات المزعجة ، فوجدتني وقد فتحت بيدي نافذة لدخول رياح عاتية لايمكن صدها ، فذهبت أعيد الكتابين إلى مكانهمالأغلق تلك النافذة وأطفيء الأنوار ثم عدت إلى سريري أنتظر زائر ليلتي أن يأتي وقتما يشاء..

تحية المهرج

كنت أحمل حقيبة التسوق الممتلئة بالأغراض ، عندما مررت بالمتاجر الكثيرة على جانبي الطريق .

السوق هنا مبهج ونظيف ، وواجهات المتاجر راقية متسقة الألوان ، والمعروضات مرتبة ، تجذب عين الناظر إليها . . حتى محلات الخضروات والفاكهة قد تفنن أصحابها في ترتيب بضاعتهم فرسموا بها الأشكال الهندسية ، ونسقوا الألوان والأحجام ، مما جعلها تسر عين الرائي وتجذب المشتري .

أحب هذا الجزء من السوق . . إذا تعبت من السير أستطيع الجلوس على إحدى لأرائك الخشبية المنتشرة أمام المطاعم والمتاجر ، فأمتع عيني بالنظر إلى أصص الزهور الفخارية الملونة المصفوفة على جانبي الأريكة

وجدت مكاني المفضل خاليا فجلست ألتقط أنفاسي ، وأريح يدي المتعبة من حمل حقيبتي ، جلست ورفعت رأسي فلمحت ذلك

المهرج ذاالأنف الأحمر الكبير الذي يعلو فمه المفتوح دوما بابتسامة واسعة ،كان يرسل لي تحية ملوحا بكفه البيضاء من بعيد . . فوجدتني أرد تحيته بابتسامة أكثر سعة ومرحا .

لحظات ثم ضحكت من نفسي عندما تبينت أنه مجرد صورة مجسمة تعلو واجهة متجر يبيع العصائر الطازجة والآيس كريم ، يقع في الجهة المقابلة على بعد أمتار قليلة ، لايفصلني عنه سوى عرض الشارع المزدحم .

واجهة المتجر لونها أصفر يثير البهجة في النفس ، وذلك المهرج يتوسطها بصورته الكبيرة المجسمة ، فشعرت كأنه يدعوني لأعبر الطريق كي أرد عليه تحيته بنفسي !

الجو حار وخانق والشمس كانت تلتهب فوق رأسي ، مما جعل الفكرة تبدو رائعة . . بالفعل أنا أحتاج لكوب مثلج من عصير البرتقال الطازج وربما المانجو أو الفراولة ، وأن أستريح قليلا قبل استكمال رحلة تسوقي

وقفت واعتدلت وخطوت خطوتين في اتجاه متجر العصائر ،وأنا أفكر أي المشروبات سأختار ، وبدأت حواسي بالفعل تشم رائحة عصير الفراولة وتتذوق طعمه .

ولما عبرت الطريق واتجهت نحو المتجر وبدأت أخترق زجاج الواجهة بنظري لأختار طاولة أستطيع منها مراقبة الطريق ، فوجدت أن جميع الطاولات مشغولة إلا واحدة . فكرت حسناً . . أستطيع اللحاق بها .

وقبل أن أخطو داخل المتجر ، نظرت إلى بقية الطاولات فوجدت ماثبت خطوتي بالأرض وأذهلني عن ثقل ماأحمل من الأغراض .

كل الطاولات يشغلها كبار السن ! وكلهم يجلسون عليها فرادى وحيدين ، دونما صحبة .

نظرت جيدا لأتحقق . . ربماكان المكان مخصصا لكبار السن فقط ! وقدكنت أخشى أن يزعجهم تواجدي بينهم حيث أكون دخيلة عليهم ، لكني لم أجد مايشير إلى ذلك !

ثم ضحكت من نفسي . . أي فكرة ساذجة هذه؟! متجر للعصائر في وسط السوق مخصص لكبار السن

لو أخبرني أحدهم بأمر كهذا ماصدقته .

ماذا أفعل ؟ ماذا لو دخلت وجلست بينهم فنهرتني نظراتهم ؟ فأنا لست مثلهم ، أم أنني واحدة منهم ولكني لاأدري ؟ حقا إلى هذا الحدلا أدري ؟

وماذا لو دخلت فتغامزوا وسخروا مني ؟ للعجائز والشيوخ عادات غريبة ، وهم لايحترمون خصوصية الآخرين كثيرا . . ربما سألوني أسئلة محرجة !

وقفت لحظات أمضيتها في هذا الشرود الذهني ، وقد تنبهت أني قد توقفت بالفعل عن حساب سنوات عمري منذسنوات عديدة ! لكن لاأظن أنني كبرت إلى هذا الحد !

أنظر إلى قدمي ، أتحسس شعري ، ثم أنظر إلى كفي ديل أجدها ناعمة وخالية من أي تجاعيد أوعروق بارزة ، فأتيقن مما أعرفه عن نفسي . . أنا مازلت يانعة ،لكني متعبة . . وربما وحيدة مثلهم !

علمت أن هذا مايشبهني فيهم ، ولكن هذا ليس سببا كافياليجعلني أجلس وحيدة وسط تلك العجائز الوحيدات ثم يراني عابر ليشفق على وحدتي وكبر سني .

وجدتني في حيرة من أمري . . من عمري ،من حالي ووحدتي . . حيرة هي أشد قسوة من حرارة الشمس الحارقة فوق رأسي .

قدمي مثبتة بالأرض وكأنها شدت إليها بوثاق من حديد لاتستطيع منه فكاكا ،ويدي متعبة من ثقل ما أحمل .

مرت الثواني ساعات طوال وأنا على نفس الحال .

تذكرت أنني لم أنته بعد من شراء باقي أغراضي ، ومازلت مترددة في دخول متجر الوحيدين العجيب هذا ! لحظتها تذكرت ماالذي جعلني أعبر الطريق وأقف هكذا ، فرفعت عيني نحو المهرج ذي

الأنف الأحمر الكبيرف وجدته على حاله . . يضحك ويلوح بكفه محييا كل عابر ! فرفعت كفي هذه المرة ملوحة إليه لأرد تحيته ، وابتسمت في نفسي...

ثم غادرت .

****

الفهرست

1 _ الإهــداء	3
2 _ القــيد	5
3 _ شق الجدار	14
4 _ ولادة	20
5 _ حــياة	27
6 _ جيراننا الطيبون	38
7 _ ســيادته	42
8 _ زهــرة	50
9 _ ضيف ثقيل	60
10 _ نــهر جديد	68
11 _ جـيرسي	76

12 _ لم يأت بعد 82

13 _ تحية المهرج 87

14 _ الفهرست 93

مع تحيات

الكاتبة الروائية هبة سعيد

مع تحيات دار الحسيني للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الادارة

عبد القادر الحسيني

المشرف العام

محمد عبد القادر الحسيني

المدير العام

عصام عبد القادر

نائب المدير

مختار عبد القادر الحسيني

الهيئة الاستشارية للدار

الدكتور حسام عقل الدكتور علي جاد الحق

الدكتور لطفي سيد صالح الدكتور بسيم عبد العظيم الدكتور رمضان الحضري

في ظـل ابتـسامـة هــبة سعـــيد